سلام إبراهيم

طفلان ضائعان

الأعمال الكاملة

10

قصص

ألف ياء
Alf Yaa

طفلان ضائعان

المؤلف: سلام إبراهيم
الكتاب: طفلان ضائعان (قصص)ـ الأعمال الكاملة 10
صدرت النسخة الرقمية: حزيران/يونيو 2026
الطبعة الأولى 2019، دار الدراويش ـ بلغاريا

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa»ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

الأعمال الكاملة 10

سلام إبراهيم

طفلان ضائعان

قصص

منشورات «الأيام»

إهداء

إلى ناهده القزمرية

«AlYaa» منشورات

الفهرست

1- عشتار العراقية.....9
2- القديس.....39
3- طفلان ضائعان.....59
4- قالت لي.....73
5- "كتابات الفجر".....101
6- حب في بار.....109
7- في الضوء.. في الضوء.....119
8- جُمهورْ، وما أبقى هنا وتطوير الثورة العالمية!.....127
9- اليوم قتلوا قطي.....137
10- أحلام سكير منفي.....145
11- معشوقتي الجنية.....155
12 ـ عاصفة هبت من جواره وضيعته.....177
13- حفيد علي بن أبي طالب.....185
14- صديقي.....191
15- شوق مستحيل.....193
16- الرفيق.....196
17- عناق حصان.....200
18- حصار وتبعثر.....205
19- ضحك.....207

20- أمي..211
21- قتلة وشكوك...213

1- عشتار العراقية

- يا حبيبي أحنه في حكاية من ألف ليلة وليلة!.

قالتها، وعيناها اللامعتان منشغلتان عني بالسقف الخفيض المغطى بلوحات محشودة بالجواري والمغنين والراقصات المتطوحات وكأنهن سيسقطن بعد لحظة في أحضان الرواد.

كنتُ مذهولاً ممتلئاً بها، وبالعكس تماماً من مخاوفها، أخذتها تلك الليلة إلى مطعمٍ منزوٍ. كانت ترتدي بدلتها الترابية الضيقة

حد الوركين، الفضفاضة خلف الربوة المتماسكة اللدنة. هبطنا في عالمٍ آخر حال عبورنا العتبة، توقفنا لبرهة مسحورين بمزيج الأضواء الخافتة التي تسقط من أركان غير مرئية وكأنها ظلال ألوان في لوحةٍ، تتخايلُ وسطَ بحرٍ من الشمعداناتِ الموزعة على طاولات صغيرة مرتبة بطريقة تجعل من المكان حميماً ونائياً بنفس اللحظة. اصطحبنا النادل الأنيق إلى طاولة متطرفة اختارتها، جلست في زاوية تتيح لها رؤية أركان المطعم، وتركتني بمواجهتها مزدانة الجوانب، بمشاكي الجدران الناثرة رذاذاً ملوناً خافتاً من أضواء ينتشر من باطنها دون رؤية مصدر النور، نوافذ عمياء صغيرة، درفاتها ملونة نصف مفتوحة على عمق أزرق كأنه فضاء نهارٍ صيفي رائق، كانت أمامي مبهورة تحدق بعينيها الواسعتين المندهشتين في أرجاء المكان بينما أبحر في مزيج الأضواء الرائع المنعكس في سوادهما المتلألئ. في فسحة الصمت التي استطالت كنتُ أمسح بعيني الشغوفتين نحول كتفيها العاريين، عنقها الأتلع ولون مهبطه الأشد سمره، وما يكشفه الزيق المخّروم من تدوير الثديين الصغيرين اللذين بديا لشّدة طلاوتهما وكأنهما مطليان بزيتِ الزيتون الخالص.

كنت كمن أمسك حلمه صاغراً مندهشاً مسحوراً.

هاهي الجنية التي بحثتُ عنها منذُ الطفولة متجليةً أمامي بلونها الخمري وثوبها الترابي المتشرب بمزيج الأضواء.. هاهي من كنتُ أحلم بها وأنا أغفو في باحات الجوامع، أفياء النخيل، على ضفاف سواقي الحقول الصغيرة، وفي وحدتي بين أكداس الخشب في دكان خالي النجار.. المرأة التي ستستحيل مع

غرقي في بحور الكتب إلى كيان لا تحقق له إلا في مخيلة جامحة تصوغ من أساطير الحب القديمة السومرية والفرعونية وحكايات ألف ليلة وليلة تفاصيل الأنوثة المطلقة، بحيث أصبحت هش القلب أتعلق بكل جميلة تخطف أمام ناظري، فدخلت في قصص حب خاطفة أبكتني كثيراً وأنا أخيب في العثور على امرأة أحلامي بينهن. هاهي الأصل عشتاريَّ العراقية تنبثقُ من جديد بحلتها الترابية وسمرتها الخمرية وشرود عينيها وكأنها لا تعرفني. قلتُ لها هامساً:

- حبي.. حبي.. وين وصلتي؟!.

ألتفت نحوي مثل من يستيقظ لتوه من حلمٍ. افترستني بعينيها الجريئتين وقالت:

- أريد أن أسكر هذي الليلة!.

لا أدري ماذا أصابني فقد فاجأتني حقاً. ارتبكت حقاً من مزيج نشوة بعثته فكرة أن أراها سكرانة وخوف من تجليات عشتاريَّ البرية في ضباب السكر، فهي دون شربٍ تفعل الأعاجيب ما أن تنفرد بيَّ، فكيف بها إذا أخذها الخمر إلى حدود السيل، خفتُ أن يجرفني، يلقي بيَّ على جرف رطبٍ منهكاً ويسدر بعيداً نحو الآخرين. طفح ارتباكي مما جعلها تتساءل:

- أش بيك يا حبيبي.. عندك مانع؟!.

قبل أن أتمالك نفسي وأجيب أردفت:

- إذا ما تقبل.. فلا داعي.. فأنا لم أذق طعم الخمر في عمري!.

وجدتني أهتف من أعماقي، حالماً بمرآها مخمورة، متخلصةً، من بقايا أسوارها الواهية أصلاً:

ـ ليس لدي مانع

وناديت على النادل. تألقت ملامحها بوهج الرغبة السابقة لنهل الخمر، وابتسمتْ تلك البسمة الفاتنة التي لا تُظْهِرْ سوى سنيها الأماميين العلويين البارزين بروزاً خفيفاً يضفي على شكلها المزيد من السحر، والمتفارقين بشقٍ معتمٍ يزيد من توهج بياضهما الناصع وكأنه إطار لحبتي لؤلؤ.

أقبلتْ على كأسها المترع بالنبيذ الأصفر المترقرق في محيط الزجاج الشفاف بعد أن مست بحافته كأسي فرنَّ في هدوء المطعم.. في حيرتي، وسحبت ذراعها العارية نحو شفتيها المطليتين بلون وردي خفيف جعلني النهل منهما أذوق طعم الماء الأول المرتشف بعد فعل الخلق. رشفتْ مقدار قطرة. أبعدت الكأس مسافةً. ورمتني من تحت أهدابها الفاحمة بنظرة فاحصةٍ. كنتُ مأخوذاً بأرستقراطية رشفتها الملكية ذاهباً إلى العمق.. إلى التراب والفرات حيث نشأنا جوار مدينة نفر السومرية.

ـ أتكون روح عشتار قد حلتْ بروح محبوبتي الجالسة قبالتي بترابها المطلي بزيت الزيتون، وملامحها البرونزية المتراقصة في خافت أضواء شموع الطاولة والفوانيس المثبتة على أعمدة القاعة خفيضة السقف؟!.

ـ أأكون أنا دموزي زوجها الذي انتقته دون كل عشاقها؟!.

ـ أسوف أنتهي إلى نفس المصير؟!.

أرعدني الخاطر فانتفضتُ متشبثاً بكأسي.

ـ أش بيك يا عيني؟!.

قالتها معاودةً نفس ابتسامتها، سَبَتْني، فرحتُ أنهج قبل أن أقول:

ـ يا لسحرك.. يا لفتنتكِ!.

تضرج وجهها بالنشوة فأخذتها إلى قمة ليس بعدها علو، واتسعت ضحكتها الصامتة فأعطت إيقاعاً أخر لا يوصف للقسمات المتناغمة.

ـ ألم أكن وقتها كائناً صاغته الكتب والقراءات والعزلة في غرفة؟!

ـ ألم أكن أضفي على كيانها الجالس أمامي ما ليس فيه؟..

بعد عشرين عاماً سوف أتيقن من هذا وأنا أكتشف أنني أضفى على واحدة عابرة في مقهى ما أضفيته عليها في ذلك المطعم البعيد.

رحنا نرتشف الكأس تلو الكأس، ونأكل السمك المشوي السلطات المقدمة في صحون منقوش على محيطها زهور برية تخيلتها حية في ضباب الإنارة ونشوة الخمر. طلبتُ نبيذاً أحمر مع لحم بقر مشوي، جبن، كافيار، لبن، حمص بطحينة، زيتون، قطع خبز محمص بالفرن وآيس كريم. ابتدأنا نسكر، فرحت كشأني أعلق تعليقاتي الداعرة مما يجعلها تنفجر بضحكتها، غريبة الإثارة، بجرتها الأخيرة الشبيه بصرخة النشوة حال بلوغ

ذروتها. الضحكة كانت تضج بهدوء المكان فتترجاني كي أكف:

ـ كافي عيني.. كافي حبي.. فضحتنا. كل الناس عيونها علينه.

ألتفتُ ففاجأني الزحام، لم تكن هنالك طاولة فارغة. ابتسمت للوجوه المحملقة، فما يهمني من شأنهم العابر وأنا ألجُ عتبة عشتاري العراقية بوجهها الساحر الذي يختلط فيه خفر وحياء ملكة مع جرأة عاهرة معبد قديم. اعتدلتُ في جلستي ورحتُ أتحسس كتل الآيس كريم بطرف لساني مطلقاً آهة خافتة

ـ الآيس كريم دمرني!

ـ يا.. ليش؟!.

ـ تدرين بيش يذكرني؟!

ـ ما حزرت يا الله ما حزرت؟!.

وأشرت برأسي صوبه وأنا أدور لساني حول الكتلة الطرية، فانفجرت في ضحكٍ متواصلٍ أمتد دقائق مرددة في ثواني أخذ النفس:

ـ داعر.. داعر، داعر.. أكبر داعر بالدنيا حبيبي!.

اندمجنا في حديثٍ هامسٍ عن المستقبل متخيلين شأن كل أزواج جدد عدد الأطفال وصورة الحياة القادمة وتفاصيلها السعيدة. كنتُ أغور في عينيها اللعوبتين غير المستقرتين اللتين تزوغان بين الحين والحين ناظرة خلف ظهري.

ـ هل كانت تمارس لعبها الخفي منذُ ذلك الحين مستمتعة بعيون العالق المسكين المتوسلة؟!.

ـ هل كانت تكتفي باللعب أم أنها تذهب أبعد شأنها شأن عشتار البابلية؟!.

وبغتةً اكتست ملامحها بجدية الصحو، دفعتْ كرسيها قليلاً، وانتصبتْ واقفةً مثل رمحٍ ناقلة نظراتها الغاضبة بيني وبين عمق المطعم خلف ظهري وقالت:

ـ لنتبادل المكان!.

لم أسألها لماذا، فقد حدستُ بأن لعب عينيها المفطورتين على الحركة واختراق أسوار الآخرين، وحضورها الطاغي الساطع بحلتها الترابية وكمال قوامها الممشوق وفيضان شعرها الفاحم المتساقط على الكتفين، مضاف لنوبات ضحكها الفريد وطريقة رشفها للخمر المترقرق بذهب روحي تارة ونزيف دمي في أخرى، كل هذا الفيض الإلهي الهابط عليّ من عالمٍ أخر، الطالع من تراب الأزمنة الغابرة قد جندل مسكيناً أخر من مساكينها الذين بلا عدد. أصبحتْ بمواجهتي. توحدتْ بيّ منفردةً بوجهي المذهول، بعيني المحدقتين في ملامحها المقددة، المبحرتين في عينيها الناعستين اللتين بان في غورهما فعل الخمر. كنت أتصّابر بعناء فالرغبة الماحقة بضمها تشّبُ في جسدي.

قالت: لنذهب!.

وأومأتْ للنادل. دفعتْ الحساب وأشارت بيدها كي يحتفظ بالباقي. اتكأتْ على مسند الكرسي، وتمايلتْ عند النهوض. أسرعتُ كي أسندها. همست:

ـ لا..لا لا!.

تماسكتْ رامحةً بقامتها الطويلةِ، وخطتْ بتوازنٍ إلى جواري في يمِ الأضواءِ وبحرِ الموسيقى الخافتةِ. عشراتُ العيونِ تلاحقُ خطونا البطيء. عبرنا العتبة لنواجه الليل الحالك ونسماته الباردة البليلة. قالت:

ـ اسندني.. سكرتْ!

حضنتها بذراعيَّ هامساً:

ـ قاومي.. ما بقه غير خمسين متراً!.

كانت تترنح بين ذراعي وتكاد تهوى كلما قطعنا عدة أمتار، وتقبّلني في كل ناحية تصلها شفتاها، مشينا مشياً مبعثراً على المسالك الضيقة خافتة الإنارة، وقبلاتها المبعثرة تقدح حواسي، أهبط بوجهي نحو عنقها بين الخطوة والخطوة لأعبَّ من عبقها الفائح. خلف الباب انهارت بين ذراعي غافيةً مثل طفلةٍ. حملتها إلى السرير. وضعتها بأناة. عدلتُ طولها الممدود واضعاً وسادة الريش تحت رأسها، فأنبسط شعرها الفاحم الكثيف مغطياً نصف الوسادة المشتركة. وحرتُ ماذا أفعل؟!. وقفت جوارها، كانت تغفو مثل ملاك، منذ تلك اللحظة أيقنت بخواء روحي دونها، فهجمت علي الهواجس، أنا شبه الممسوس أصلاً، فماذا لو سممها الخمر التي عبت منه زجاجاتٍ ثلاث هي التي لم تذق طعمه من قبل؟.. ماذا لو فقدتها إلى الأبد؟!. سيظل ينتابني مثل هذا الشعور وأنا أتخيلهم يقبضون عليها أيام اختفائي، أو تخترق جسدها شظية أو طلقة بين الثوار في الجبل. سأرتعد كاتماً خوفي بصمتٍ، يتلاشى هذا الشعور حينما أقلبها بأصابعي متأكداً من وجودها الفيزيقي جواري في الغرف المعتمة ويوم الجبل،

حملقتُ بفزع نحو طولها المسفوح الهامد على سرير الفندق حتى خيل إليّ أن صدرها المشدود بالثوب لا حركة فيه. بركتُ على ركبتي جوار السرير مقرباً أذني من موضع قلبها تحت ربوة النهد الأيسر الصغير المضغوط بالثوب. أصغيتُ إلى بوابة كونها المخفي مستمتعاً بضجيج أحشائها العذب والذي سأدمن عليه في الأيام اللاحقة، سأنصتْ إلى نبضها كل ليلة قبل خلودنا إلى الغفوة، ستنعتني بالطفل تارة والمجنون في أخرى، لم أكف عن العادة تلك حتى خريف العمر. أمارسها بنفس الروح منفصلاً عن التفاصيل الموجعة، ومنصتاً لتأريخ النبضات ذاتها التي لم تستدير وتلبس غير ثوبها كما نفعل نحن أيام الشجار المثار لأتفه الأسباب حتى أنني أظل في حيرة دائمة من الكيفية التي يتطور فيها حوار يومي عادي إلى شجار وعراك وصد في الفراش يستمر أياماً وتلبك في الوجوه لا يحله سوى تماس الجسدين في الليل بأنفاق الغفوة المحتشدة بتاريخ الجسد الذي يبدو أحياناً وكأنه مستقلٌ تماماً عما يجري في بحر النهار، فتنهل الأجساد من بعضها في لحظة لا هي بالنوم ولا هي بالصحو.. لحظة قائمة بينهما أيقنت من فرادتها وضرورتها لدوام عشرة طويلة، دون لحظة التواصل الذي يجرى على حافة النوم سيصيب العلاقة بين الجنسين خراباً مبكراً.

لن أفوت أيام الصفاء في خريف العمر دون الهبوط بصفحة وجهي الناضحة خجلاً، من استغراب ملامحها الحيادية، شاعراً بأنها تعدني ممثلاً رديئاً، أتحمل ثقل قسماتها الباردة لأخوض في ضجيجها وهو يملأ مسمعي بدفقه الحار البري البريء والمختلف عن تصلب القسمات المنتظرة المتلكئة عن الذهاب

معي نحو الذروة المعتادة، والمتضايقة من حركاتي الصبيانية.

ـ هل كنت أحاول مسك طعم وروح وأصوات تلك الأيام المتلاشية؟!.

ـ أما زالت ذلك الطفل الحالم بظل جدار؟!.

قلتُ لنفسي:

ـ الثوب ضيق يكتم أنفاسها!.

أدرتها جانباً، كانت طيعة بين ذراعيّ، بحثتُ عن سحابة الفستان، فواجهني ظهرها العاري حد النصف، الناحل بحيث أستطيع عدَّ أضلعه اللينة المتموجة تحت البشرة السمراء المطلية بالزيت، جعلتُ ألهث مأخوذاً وأصابعي المرتجفة تمسك بنتوء السحابة الصغير، أنزلته بهدوء مليماً، مليماً محملقاً بمهبط الخاصرة النابضة وطرفي فستانها الترابي يتباعدان حتى ربوتي الردفين المهلكين اللتين ستذيقانني الويل لاحقاً، سحبتها وكأنني أمسّ بكفيَّ المفتوحين إناءً زجاجياً شفافاً، صارت على ظهرها وتوسط جسدها السرير، فأصبح تنفسها يسيراً وسدرت ملامحها في عمق الغفوة الهانئة.

أفرزني الصمت وليل المصيف الجبلي وطولها الغافي والخمر إلى وحشةٍ بريةٍ لذيذةٍ طافحةٍ بالحيرةِ. حيرةٌ غير تلك التي لازمتني في طفولتي الشقية حينما أجد نفسي في باطنها مخذولاً مهاناً بعد صفعة من كف أبي، عمي، أو في قبو الزنزانة متسائلاً:

ـ لم يحدث لي ذلك؟.. وما الذنب الذي جنيته؟!.

هذه حيرة مختلفة تهجم عليّ من وقع أنفاسها، من تقاطعيها، من أمكنة البهجة المندثرة في أعماقي، من لذة مجاورة عشتار المتسللة من بطون الحجر.. بطون الكتب.. من غور ليل النافذة المحتلة طول الجدار المطل على الوادي. تلفتُ في حيرتي:

ـ ماذا أصنع؟!.

نهضتُ من بروكي جوارها، خطوتُ نحو الصالة، وجلبتُ كرسياً، وطاولةً صغيرةً وقنينةَ ويسكي وكأساً وصحناً ملأته بقطعِ الثلج.

ـ فمن لي سواك بحضور عشتاريَّ الغافية؟!.

رحت أرتشف الكأس تلو الكأس متأملاً غفوتها الساكنة، أدوات زينتها المنثورة على الطاولة الناصية، أحمر الشفاه، صبغ الأظافر، مسحوق الخدود، كريمات البشرة المختلفة، قنينة العطر التي رفضتُ بشدة أن تتعطر بها، فلجسدها رائحة هي مزيج من الجوري والخباز وأعشاب البر التي كنتُ أجمعها من حواف سواقي الحقول المحيطة بالمدينة، وأعصرها بقبضتّي، ثم أستنشق بعمق ضوعها الذي كان يوحدني في لحظة تنسيني كل ما يحيطني من بشرٍ، ذلك المزيج شممته من جسدها في أول عناق على سطح دار أهلي، رأيت ملامحي الظليلة في مرآة الزينة المقابلة، رجعت إليها، إلى بعثرة فستانها وقسمه الأسفل الفضفاض المكوم بين ساقيها، إلى حذائها الأسود الصغير الذي لم أنزعه. كان شكله ساحراً على قدميها المنفرجتين على الفراش الأبيض:

ـ وماذا بعد؟!.

قلتُ لنفسي وأنا أمعن بسكرين.. سكر الجسد المسفوح المحرض على الصحو.. وسكر الخمر المحرض على الحلم. لن أنسى أبداً تلك الليلة الفريدة أبداً. قمت من جلستي.. متى؟ لا أدري.. كنتُ خارج الليل والنهار والفصول. فتحتُ الحقيبة الكبيرة المركونة في زاوية الغرفة. استخرجتُ أعواد بخور وحفنة "حرمل" وأصابع شمع أصّرتْ على حملها معنا للتبرك وتكملة الطقس كما قالت ضاحكة. أشعلتُ أعواد البخور ووزعتها في الصالة. فرقعتُ بذور "الحرمل" في إناء نحاسي صغير على نار الطباخ الغازي، ورتبتُ أصابع الشمع في أركان غرفة النوم، على الأرضية وطاولة الزينة وجوار قنينة الويسكي والكأس، ثم أطفأت الأنوار، فغرق طولها في بحرٍ مرتجفٍ من النيران المتراقصة في المتموجة على بياض السرير، تراب فستانها، مهبط النهدين الحبيسين، انعكاس وجهي المذهول في مرآة الزينة. طفت سابحاً بمزيج الروائح المسكرة، رائحة البخور الهاجمة من الباب المفتوح على الصالة، رائحة الحرمل المفرقع في المطبخ منفجراً حبة.. حبة، رائحتها البرية الفائحة، عبير أنفاسها المنتشرة في نواحي روحي.. غير المصدقة بهذا الهبوط الرباني المتجسد على مسافة مترين من سهري. تعمقتْ حيرتي.. توحشت.. هاجمتني الهواجس من خلف البخور والحرمل وعطرها وأنفاسها والعتمة وأصابع الشمع والمرآة. هاجمتني مباغتة دعة حلمي السكران، فخفتُ منذُ ثاني ليلة ننام فيها كزوجيين من فقدانها.. كان المجهول في انتظارنا، والجبهة مع إيران مشتعلةً منذُ عام ولا أدري متى أُستدعى لخدمة الاحتياط. هواجس هجمت علي تلك الليلة

ومشاهد أصدقائي القتلى وهم يُغسلون على دكة المغسل الأسمنتية الباردة في مقبرة النجف، عراة مشوهي الأجساد، ثم مشهد زوجاتهم الفتيات اللواتي يصرخن جوار حفرة القبر لاطمات نادبات لحظة إنزال الجسد المكفن. صراخ وحشي ظل يرنّ بمناحي نفسي لحظات شرودها. كنت أقول مع نفسي بصمت:

- يا إلهي.. ارحمني من هذا المصير.

أقول ذلك وأنا أتخيلها تبكي موتي. كنتُ أقول كي أطرد تلك الهواجس.. عش لحظتك يا مجنون.. عشها بكل عنفوان المرة الواحدة. وظللتُ أقبل عليها في اليوم والسرير وكأنها المرة الأخيرة في ذلك المخاض الشرس الذي عبرناه معاً. كان هاجس الفقد معي مثل ظلي، لازمني في كل الأمكنة.

كنتُ أتلظى في لهيب الحب والمخيلة والكتب والتاريخ والجسد وفكرة العدالة والمساواة واحترام الكائن البشري دون حدود، أعمقَ حالمٍ والهواجس تهجم عليّ في جلستي الحائرة، وسط الشموع وأشياء الغرفة وجسدها السادر في غفوته على سرير الفندق.

هاجمتني من صباح اليوم القادم الواقف على العتبة.. من غيابها في غفوتها العميقة الشبيهة بالموات. أنهكتني الهواجس وتركتني كسيحاً في كرسيي جوارها. أتيت على ما تبقى من ويسكي في القنينة بجرعات شرهة، كأنني أريد طرد الوساوس وقليلا.. قليلا جعلني سائلها السحري أطير بعيدا.. بعيدا إلى أمكنة نائية لا هواجس فيها، ثم أهبط من جديد خلي البال على

موج طولها الغافي وحيرتي المبهجة والسؤال المتكرر منذُ سقوطها في النوم:

ـ ماذا أفعل يا إلهي في هذه الليلة الفريدة التي تكاد تخطف؟!.

ـ ماذا يفعل عبدك المسكين المدله حينما تسقطه في امتحانٍ عسيرٍ كهذا؟!.

كدتُ أصرخ مثل درويش.. مددد.. حيييييييييييييييي قبل أن يَطعن لحمه العاري برهافة النصل الخارق. وجدتني مثله تماماً مطعوناً بهذا الجسد الناصل، السادر عن ألمي ورغبتي وذهولي في عمق غفوة طفل تعب من اللعب.

ـ ماذا أفعل.. ماذا؟!.

تأرجحت على حافة الجنون، سكرانا بعبيرها المالئ مسامي والقنينة فرغتْ. هرعت إلى البراد وأتيتُ بقنينة "فودكا" هذه المرة:

ـ ليس لدي غيرك سلوى الآن!.

همستُ لقرقرة السائل المستعير قوام الماء وشكله، المتدفق من عنق الزجاجة الضيق حتى حافة الكأس الصغير. أفرغته برشفةٍ. صببتُ ثانيةً وثالثةً.. ليس للسكر ساحل، مصلوباً.. متوتراً على كرسيَّ، صاحياً بحضور الجسد المسفوح تحت ناظري.

ـ هل يغفو من يداني حلماً قديماً كاد أن يكون شبه مستحيل في قسوة بيئة شيدت تقاليدها ضد الحب؟!.

هاهو حلمي جواري على سرير المحبة.. ها هو حلمي

السكران عافني في يمّ الأشواق المبهجة في ليلة فريدة لم أعِشْ مثلها بقية العمر!.

ـ الحضور الساحر الصاد حَوَلَّ الخمر ماءً والألمَ سعيراً وعواءً!.

ـ الحضور الغافي حوّل الخمر ماءً والألمَ لذةً!..

ـ ماذا بوسعي إزاءه؟!.. وهل من سبيل يوصلني إلى حافة النوم؟

الوصال معه مستحيل.. والغفوة عنه مستحيلة!.

وجدتني أعب وأعب من زلال "الفودكا" علّها تهمدني، لكن هيهات، كانت تزيد من توهج الحواس، وتجعل من رغبتي ماحقةً إلى أن دفعتني إلى البروك على ركبتي جوارها بروك مصلٍ متوحد. مددتُ أصابعي نحو كتفيها الناحلين. أدخلتُ رؤوس أصابعي تحت حافة الفستان. سحبته إلى الأسفل بأناة سحباً خفيفاً، فتعالى في صخبي حفيف احتكاك الثوب باللحم الأسمر البض. راح جسدها ينكشف بوصة.. بوصة مع شدة بطء السحب. حررت الذراعين الممتلئين المزيتين، النهدين المختبئين تحت قماش الحمالة الضيقة والذي لا يخفي من صرختهما سوى جزء يسير يعلو الحلمة النافرة الرامحة الدافعة نسيج الحمالة الترابي الشفيف.. الحلمة الداكنة بادرة فلقت قلبي. انكشف مهبط البطن الضامرة المؤدية إلى قاع الصرة المعتمة.. وشم الحياة الأولى والجسد في تخلقه وهو يسبح في البحر الأول.. تذكار قديم من ذلك العالم المائي في محيطات الرحم حيث لا فضاء، مطلق أبدي يكرر فعل الخلق بوسيلة وحيدة هي هذا الوشم

المحفور في مركز الجسد البشري، الارتفاع اللدن المبتدئ من أسفل الصرة حيث أصبح الفستان شديد الالتصاق بالحوض العريض. حلحلتها بين يدي. كانت لينة مثل عجينه متماسكة. خلصت الفستان من بروز الحوض، فأنكشف لناظري المأخوذ منبت الفخذين المتينين. حملقت مشدوهاً في طلاوة استدارتهما وكمالها، في صلابتهما الظاهرة ولدونتهما التي أتلمسها بأطراف أصابعي المنزلقة على بشرتهما الملساء. رددت دون صوت:

ـ سبحانك يا ربي.. سبحان خلقك!.

مسّحتُ منحدر الفخذين المصبوبين المنتهيين بصابونتي الركبتين الصغيرتين جداً، والغائرتين في امتلاء الساقين، ظهرت عضلة الساق المدملكة والتي كانت تضعني في الحيرة كلما لمستها في عتمة غرفتي. رفعت الفستان. عببتُ من ضوعها المخبوء في نسيجه، ثم ألقيته إلى جانبها على السرير. تلفتُ باحثاً عن شيء.. عن مجير. لم أجد سوى الخمر. أتيت على ما تبقى في الزجاجة. ازددتُ صحواً على صحوٍ.

ـ من ينقذني سواها.. من رمضاء رغبتي في دخول هذه الأحشاء الغافية الغاوية؟!.

ألا من مغيث يوصلني إلى هوة السكر والنوم؟!.

ألا من منقذٍ من جحيم هذه الليلة المشتعلة؟!.

إلا من؟..

إلا من؟!.

أرخيتُ رأسيَّ لصقَ قدميها الصغيرتين، قدمي الطفلة اللتين

هبطت نحوهما في أول لقاء على سطح الدار متسائلاً:

ـ أكيدْ حِبسَتْ أمك قدميك بحذاء من حديد حتى يُبْقَنْ بهذا الصغر اللي يدوخ؟!.

ضحكت في مساء السطح متسائلة:

ـ ليش.. أش بيهن؟!.

هبطت بعد سؤالها البريء نحوهما. قبلتهما في كل بقعةٍ باطناً وظاهراً قائلاً:

ـ قدماك قبلتي!.

ارتعدتْ وقتها مرددة:

ـ أستغفر الله.. أستغفر الله!.

مسحتهما بشفتي بمسٍ كمسِ نسيمٌ خفيفٌ، ورحتُ أتملى عن قربٍ طلاء الأظافر الذي انهمكتْ به قبيل خروجنا عصراً إلى المطعم، معلقةً على تحديقي الصامت المركز على طرف الفرشاة المنقوعة بلون البنفسج وأطرافها المبتلة المارة بسطح الأظافر المتناهية الصغر:

ـ أتزيَّنْ لليلتنا الثانية يا حبي!

لكنها سقطتْ في سكرتها وتركتني لرمضاء الصحو قرب عريها شديد الدنو، السابح في كون النوم النائي.

أضناني اللمسُ وأحرقني. كانت ساخنةً وكأنها مقبلة على حمى المضاجعة. ساخنةُ إلى حد أيبستْ شفتي عند مرورها الوجل على كعب القدم الطري. ارتعدتُ من جحيم الفخذين.

رحتُ في نوبة من الارتعاش. أصابتني حمى جسدها الذي أتعرف عليه أول مرة عن هذا القرب.. وبهذا العمق والأمان في وحدتنا بغرفة الفندق. أمعنتُ في خوفي والرعشة أخذت بهزي هزاً.

ـ يا ألذَّ محنة في حضرة المقدس العاري!.

ـ العائم على بحر الشمع!.

ـ الغارق في عطر الأبخرة القادمة من عتمة الصالة وعبق الحرمل القادم من المطبخ.

رجعت إلى الكرسي. اتكأت إلى مسنده لاهثاً. قلتُ لنفسي:

ـ هذا بحر لا قاع له هادرٌ

هذا مطلق موج لا ساحل له

فكيف بي؟!.

وأين الرسو؟!.

جلبت قنينة "فودكا" ثانية. وفي طريق عودتي استوقفتني مرآة الزينة بسريرها والجسد شبه العاري المسفوح في عمقها وسط بحر الشموع، والكرسي وأواني الزهور الرشيقة الموضوعة في الزوايا وحافة النافذة والستائر وثوبها المبعثر ووجهي الحزين.

ـ ألا يكون حنيني الآن في خريف العمر مجرد تعلق هش بأشياء تلك المرآة المدورة في غرفة أول عري تام؟!.

ـ أليس الماضي ما هو إلا ماء مرآة؟!.

ـ أأكون عاشقاً لتفاصيل المرآة عارضاً عن فيزيقية الأشياء؟!..

ـ أليس هذا جنوناً بيناً لا لبس فيه؟!.

رجعتُ إلى الكرسي. صببتُ كأساً، وغرت في الجسد المتموج في ظلال النور المرتعش. ترسبتُ في ذهولي، في الصحو الذي يشدده السكر، أمام التكوين الهادر على بياض السرير، في التباس مشاعري وموج حرمانها الهادر، العاصف بجسدي.

هاأنذا مجرد تماماً من رغبة الولوج في هذا الجسد المقدس الذي أصبح من حقي!.

هاأنذا أبغي في هذه اللحظة ما هو أبعد من المضاجعة.

هاأنذا أدخل كون الجسد المطلق مستعيداً تاريخي السري في التلصص من النوافذ وشقوق البيبان، من سطح دارنا، ومن سطوح الجيران التي أحلّ ضيفاً على ترابها في سكون الليالي المقمرة، وفي أوقات القيلولة وقت الصيف.

هاهو السر شبه عارٍ مسفوحاً تحت ناظري.

هاهو الجليل العصي على الاحتواء حتى في لحظة الامتزاج والتداخل في الذروة التي لا مكوث فيها.

هاأنذا أمكث فيها دون هبوط!.

هاأنذا أسخر من كيان الذكر اللاهث، الساعي إلى دفءٍ يظل يفتقده كل العمر حال خروجه من بحرها الدفين الذي لا أفق له ولا ساحل سوى الدنيا المبكية. لحظة فريدة جليلة تحرزها الأنثى

في إرث روح جنسها السري، غير القابل للفضح مهما قيل عنه وصفاً وشرحاً.

ركعتُ مرة أخرى جوارها. وجعلتُ أنهج، أجود بنفسي باحثاً عن نسمة تخفف وهج هذي الرمضاء المتأججة على السرير. أحطتُ خاصرتها براحة كفيّ. حركتها جانباً. كانت طيعة بين أصابعي وكأنها مستيقظة. فككت زر مشد الصدر، وتركتها تستلقي ثانية على نفس الوضع. سحبت المشدَّ ببطء عن النهدين الصغيرين المتماسكين اللامعين. احتكت أصابعي بالحلمتين النافرتين المتوترتين، فارتجفتُ فهوت قطرات من جبيني المتصبب غزيراً. سقطت على منحدر الثديين. رحتُ أتابع انحدارها السكران على المسلك المزيت الضحل الهابط نحو فنجان الصرة. تأملتُ نهرها الصغير الدافق، وهي تملأ حوض الصرة الصغير، لتفيض هابطةً من حافتها السفلى، ممسحةً جانبي الخاصرة الضامرة لتستقر على نسيج الحرير الضيق الذي يخفي الكنز الحبيس. توهجتْ أصابعي عند تمسكها بدانتيل الحرير. سحبتُ القماش اللين، فأنزلق بين الفخذين. وقعت في شرك الشق.. في غموض باب كونها الساحر.

يا لجلال خلقك!.

في جوفك الجليل يكمنُ الكون والقصة..

في فلكك يكون المعنى ويضيع.

من جوفك ظهرت البشرية لتتيه في بهمة كون لم يزل غامضاً.. عصياً.

ليس للإنسان من مكان أأمن من جوفك.. ذلك البيت البحري النازف مع دورة كل قمر..

ليس لطعمك مثيل في اللمس والتقبيل، في الرضع والإيلاج.. في العين والخيال.

ما هذه الرغبة التي يطلقها خاطر هذا التكوين العاري المسفوح تحت ناظري، الغامض النابض، الواضح المستكين بين عمودي الفخذين الحارسين مثل جنديين صقلتهما يد نحات مجنون بروح الحجر، مستديرين منتصبين أبداً يحميان بين منبتيهما المتقابلين الشق الدامي؟!..

هل الرغبة التي لا تتحرر دون التحقق الفيزيقي لهذه التضاريس المتموجة الجاذبة نحو شقها المبهر هي إبحارٌ في يم مطلق.. لا يختلف عن إبحار هذا الوجود الفيزيقي المتمدد في الفراغ؟!.

ليس لطعمك مثيل.. ولا يليقُ بك إلا التقبيل صباح مساء..

نهضتُ منهكاً من موضع بروكي. خطوتُ بين نبض الشموع الراجف ونسائم الجوري، والبخور، والحرمل، وضوع عريها الفريد. جلبتُ قنينة فودكا أخرى. افترشت أرض الغرفة. لم يعد الكرسي المشرف من علٍ على عشتاري السابحة في نهر السرير المتوهج يطيق روحي التي لا تعرف ماذا تصنع والخمر صار ماءً، لا صحو ولا سكر، والشهوة تجلت وعلتْ أمام هذا التجلي الرباني المنبعث من بطون التاريخ، من التراب، من كثافة الأخيلة، من اختلاط المعاني عند بهاء وضوحها. صارت رغبة الولوج الخاطف في الأحشاء من هذا الشق المنتفخ المتوتر

في غفوته.. الولوج الذي سرعان ما ينطفئ بعد الذروة التي لا سبيل يحول دون الهبوط منها.. الرغبة صارت مزيجَ ضوعٍ فريد لا مثيل لها سيظل يرافقني كل العمر..

الرغبة الطبيعة لدى البشر بالجنس صارت لا معنى لها.

أمكث في ذروةٍ لا هبوط منها.. في سكرٍ لا سكر بعده.. أمكث وخوفي الوحيد من انقضاء الليلة التي أدْمَتْ سري بسرها.

ـ أتكون ليلة العري والهذيان والمخيلة والوجد تلك.. سر ضعفي؟!.

كنتُ منهكاً وظهري المبتل يستند إلى الجدار المغلف بالخشب جوار السرير. وقتها لم أتخيل قط أنني بعد واحد وعشرين عاماً سأتكئ مرات ومرات في عتمة غرفة النوم الشاحبة بسماء باهتة الظلمة ناظراً للتفاصيل المهلكة نفسها، اللحم البض نفسه، التموج نفسه، الكون نفسه مع فارق نضج التجربة، إذ أكسبتها رحلتنا المضنية معاني وظلالاً أخرى وجعلت من عريها أكثر عمقاً، فشدتني إليها شداً يشبه ارتباط العضو بالجسد.. سأنسحق تحت عمق الليالي المضنيات حتى مطلع الأفجار الشاحبات في سماء لا تغادرها الغيوم الواطئة، سأصلب حتى تباشير الضوء المتسلل من النافذة الساقط على عريها المسفوح جواري، الداني المستحيل، الراغب في تبعثره الممتنع. ستلقي بي الوحدة والوحشة إلى مساحة الأسرار وعاداتها الحميمة.. سأعود إلى بواكير مراهقتي الصعبة حيث أحس أن كل الأشياء ضدي فأخترق بمخيلتي الجامحة كل الأسوار والحدود مضاجعاً ما أشاء، وقتها كنتُ أحس بنشوة

خرق المحرمات، لكن وأنا في خريف العمر ستنهكني العادة السرية التي تشبه في طورها المتأخر الخوض في فراغ.. الإمساك بوهمٍ. في تلك اللحظة وأنا أحلم بالمكوث الأبدي جوار غفوتها المضاءة بنور الشمع الخافق، وبدفق لهاثي المكتوم لم أكن أتخيل أبداً أنني سأعيش تكراراً ليلياً للحظة تلك لكن سأكون فيها منبوذاً.

كان عريها بمستوى نظري في جلستي جوار السرير الواطئ. وكنتُ أعب "الفودكا" الكسيحة حتى شحب ضوء الشموع وخيوط الفجر بانت من النافذة المطلة على الوادي الفسيح.

أرعبني الضوء.

أرعبتني تباشير الصباح التي ستحطم المشهد الذي أنتشل كياني من بهمةِ غريزةٍ بريةٍ ليضعني في موقعِ لذةٍ مختلفةٍ مبرّحةٍ، زمنها لا يقاس بالساعةِ. لذةٌ لا يفهمها إلا من عاش تباريح الخلق في ليلة من ليالي عشتار عراقية تستيقظ بجسدٍ حي يجاوره على سرير الكون في صحوة سكر.

هاهما قبتا الكون المتوجتان بدكنة الحلمتين تشبان في عتمة الفضة ورعشة الشموع نحو الفراغ المطلق.. نحو رغبتي المتجلية في المشاهدة والمخيلة.. في النحت وقصة الخليقة.. رغبتي المختلفة وكأنني ضائعٌ في زمنِ الرؤيا وهذا الحضور الجسدي الجليل..

ـ كيف يجرؤ الإنسان على القتل؟!

همستُ لنفسي وارتعدتُ للحظة خاطفة.

هاهو الشق الصغير الذين طلع منه البشر مفتوحاً مثل وردة جوري حمراء، مفتوحاً بين الفخذين اللذين ارتفعا منفرجين قليلاً.

نهضت مذعوراً من الفجر. ذهبت إلى الصالة. وضعت زجاجة "الفودكا" الفارغة والكأس على الطاولة. نَفختُ الشموعَ فانطفأتْ الواحدة تلو الأخرى ناشرةً رائحة حريفة، رائحة سأدمن عليها لاحقاً وأنا أقضي ساعات طوال دائراً بين كنائس روسيا وبلدان أوربا الأخرى هارباً من نفسي وخريف العمر والمنفى.. أي طيب حريف هو ضوع الشموع المطفأة الذي كان ينتشر في أروقة الكنائس الفخمة أيام الآحاد فيأخذني إلى لحظة انبلاج الفجر وميلي نحو باقات الجوري الغاطسة سيقانها بقعرٍ مزهرياتٍ زجاجيةٍ رشيقةٍ بقدها الضيق عند القعر والمتسع قليلا.. قليلا مع انفتاح عنق الزجاجة المدور. حملتُ عشر وردات وعدتُ إلى عريها، وجدته مطلياً بضوء الفجر المتدفق من النافذةِ. أزحت الستارة الشفافة بحذرٍ. هبط الوادي المغبش تحت ناظري. ثمة ضجة عصافير تصطخب على أشجار البلوط والحور والكستناء في الغابة القريبة. رجعت إليها وبدأت بتقطع وريقات الورد الحمراء.. ونثرها وريقةً وريقة على شقها الزاهر المفتوح.. على قبتي الكون الرامحتين.. على فنجان الصرة المستديرة وحلكة سرّها الدارس. خدشها ورق الورد، فتململت في رذاذ الفضة، ثم انقلبت مستلقية على بطنها. تموجتُ مع ربوة الكفلين موجةً هائجةً مذعورة تهبط وتصعد بين مهبط الظهر والخاصرة الضيقة ومنبت الفخذين من الخلف. ارتعدت هولاً من

هذا الكمال المبسوط تحت عيني، سوف أتذكر هذا المشهد كلما مست أصابعي كعبة ردفيها في حجها اليومي لمرات لا تعد، سأظل ألتصق بلذة ليس لها علاقة بالغريزة بالكفلين في كل سانحة ببحر اليوم، وفي ليل السرير وأنا غافٍ طوال أكثر من عشرين عاماً. ستتجسد غفوة فجر الفندق والغبش يقّبل عريها وخدود الجوري وعيني الموشكتين على البكاء في أيام هيامي المحزون في وشل العمر في أرجاء المتاحف.. سأخلد إزاء عري الحجر الأبيض القائم والجالس والمستلقي والبارك والساجد.. أتأمل في صمت وخلوة القاعات الأرواح الحية المتوارية في أعماق الكتل الناطقة. أبحر في حالات الجسد الأنثوي، في المخيلة البشرية منذُ عصور سحيقة مستعيداً فجر عري عشتاري العراقية الأول حيث ابتدأت بالبعثرة في فضاء السرير متشكلةً بتكوينات لم يحرزها النحاتون بعد في أحجارهم. تكورت بمواجهة وقفتي محتوية وجهها بين ذراعيها المشتبكتين كوسادةٍ تحت صحن جبهتها، وضمت ساقيها إلى بطنها، سكنتْ في وضعها الفريد مدةً، أشركتني، وجعلتني أخطو بين زوايا الغرفة رائياً خلفية الكتلة وقامتي في المرآة.. تبعثرت مخطوفاً بنحت الجسد الأسمر المطلي بضوء وزيت الرب، المتكور بوضع الجنين. تبعثرتُ في حملقتي بأضلاع الظهر المفصّلة التي أستطيع عدها، بجلال الردفين اللذين أكسبهما قوس الجذع الملموم ضخامة قدسية جعلتني أهبط على ركبتي وأمسح شفتي المنتفضتين الجافتين وجبهتي الراجفة بجدار الردف الطري المتماسك المستدير، الناعم في توتره، المصقول الصافي كأنه سطح مرآة. تمددتْ رافعةً ساقيها إلى أقصى السرير، فالتصقت

بكامل واجهتها الأمامية بالفراش قبل أن تنقلب جانباً مستديرة بوجهها نحو المرآة المقابلة لركوعي، فوضعتني في محنة الكتفين الناحلين المحيطين بالفقرات المتموجة النازلة حتى منخفض الخاصرة الضامرة فمرتفع الربوتين العظيمتين، العليا الصاعدة حتى قمة كوني بتحدبها المهنَّدسْ في انحداره الذي لا يجيد صبه إلا الرب في أول صبه لحواء التي بتُّ متيقناً منذُ تلك التجربة المعلقة خارج الزمن بأن الرب لحظة أعداد الملائكة طين حواء وتشكيله كان شديد الاضطراب، يغير رأيه في موضع هذي الكتلة أو تلك في اللحظة الواحدة عدة مرات حتى أورث الناظر للجسد الأنثوي قلقه وحيرته التي عذبتني في يقظتي السكرانة في غرفة الفندق الوثيرة المعلقة على ربوة بسفحٍ بين سلسلتي كارا ومتين.

ـ فما سرك يا تكويناً مثل إبحار في فراغ.. مثل الرغبة في استعارها الخاطف؟!.

لم تكف عن التقلب على جمر الفجر الفضي. لم أكف عن التقلب في جحيم أوضاع تشكلها داخل إطار السرير بخلفيته الناصعة البياض.

أنهكني الصحو.. أنهكني السكر.. أنهكتني الرؤيا!.

مـــــدد.. يا إلهي.. مدد.

مدد.. يا.. حبيبي.. مـــدد.

كنتُ أصرخ في أعماقي طالباً مدد الغيب، ظللتُ أطلب المدد كي يدعني أمكث في فسحة اللحظة الموشكة على الانقضاء.

نثرت أوراق الوردة الأخيرة على كتلتها الهادرة في بحر السرير، في فضة الفجر.

أنهكتني تباريح السهر، فتراجعتُ مخذولاً إلى زاوية الغرفة المجاورة للنافذة، تراجعت مثل من يخسر أخر معركة، تراجعتُ حاشراً ظهري في ضيق الزاوية الحادة مستنجداً من قيامة الجسد الذي شرع يطوف على حافة الصحو. كنتُ في وضع لا يحتمل صحوتها.

فعل بي ما فعل في غفوته السادرة.. كيف به عند القيام؟!. دفعني احتمال استيقاظها إلى مساحة رعبٍ من المواجهة، فأمعنتُ في حشر جسدي بالزاوية وكأنني تائه وجسده الصحراء..

- أين الواحة في وهج الجسد المشتعل في صمت النوم والغياب..

- أين الواحة في هذا الجسد المتشكل في موج الفجر وحافة الاستيقاظ..

- أين الواحة في هجير الفراغ الدوار الذي عبث بكياني في ليلة دونها كل لياليَّ حتى الممات!؟!.

- أين الواحة؟! يا جسداً يضيع الدنيا ويدوخ الكون؟!.

- أين؟!.

كدتُ أصرخ.

- هل هي في حلمٍ.. أم أنها موشكة على اليقظة لترى انسحاقي بالزاوية البعيدة عن السرير؟!.

أفردت ذراعيها. حركت أطراف أناملها. رمشت عيناها فاهتزت الأجفان الطويلة.. ستصحو يا مريدي.. ستصحو عشتاري.. ستقوم من روح الصلصال الصلد الطيع المتلوي المتكور المنبسط في وهاده الشاسعة، ستقوم.

هاهي تضع راحتيها على وجهها.

ـ أين أذهب بروحي البائدة تحت سطوة تجليها طوال الليل؟!.

كقشةٍ هشة خرَّ جسدي أسفل ركن الغرفة، في الزاوية المحصورة بين سطوع الفجر وسطوع عريها المضمخ بعطره المسكر ورائحة الفجر والبخور والحرمل وبقايا رائحة أصابع الشمع. قشةٌ تجود بنفسها في رمضاء جسدٍ لا رواء منه.

أين المفر من جحيم فردوسها القادم؟!. أين الواحة من هجير صحوتها؟!

ـ ماذا سأكون حينما تنهض؟!.

ـ ماذا سأكون؟!.

ـ مـــــدد.. يا صاحب الشأن مدد!!.

ـ مدد.. يا حبيبي.. مدد!!.

وانفجرت في نشيجٍ خافتٍ رائياً بوضوح استحالة احتواء كيان المحبوب الذي كنتُ أظنه صار واقعاً حال سفرنا ونجاح أرادتنا في مواجهة تقاليد مجتمعٍ معادٍ للحب. وجدتني إزاء تحققها الفيزيقي الطاغي الجاذب في حضورها بالمطعم قبيل السكر.. في غفوتها المدمرة والتي لن تخلص من سطوة تجسدها الليلي في ليالي الصد والهجران إلا في السكر حد السقوط في نومٍ يشبه

الموت أو في التسلل في عمق الليل والهيام بين الحقول حتى تباشير الضوء. وجدتُ حالي مضغوطاً أنوء كي أستطيع كتم النشيج إلى أن صرختُ مستنجداً:

يا مُعينَ الضنّى عَلَى جَسدي

يا مُعين الضّنا عَلَيَهِ أعِني.

ومن بين غلالة الدمع رأيتها تنهض من رقدتها، وتتلبث هنيهة في جلستها على حافة السرير، محملقة بعينين زادتهما الدهشة سحراً نحو انطوائي الموجوع، قبل أن تنهض وتُقبل صوبي بعريها اللاهث المضطرب:

ـ أش بِك عيني.. أش بِك يا بعد روحي؟!.

ـ ..!.

ضمتني إلى صدرها العاري، فَأَخْفَتَ ضوعها الفريد نشيجي. جعلت أصبُّ الدمع بصمتٍ، فيسيح على قبة النهدين الملتصقين بأنفي:

ـ ماذا جرى بعد ذلك؟!.

لا أدري.. فقد دخلتُ عالماً أخر لن أجد له مثيلاً إلا في حضورها وحضنها في الصحو والسكر، في الخصام والصلح، في الحضور والغياب.

2003 الدنمرك

منشورات «دار الوفاء»

2- القديس

تسللتُ من البيتِ فجراً، فمنذ وصولي لم تسنح لي فرصة تأمل أمكنة مدينتي بهدوء، ضيوف وضجيج منذ بكرة الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل. تسللت نحو حلمٍ عاشرَ لحظتي في المنفى طوال عشرين عاماً.. أن أتمشى على مهلٍ من بيت أهلي في "الحي العصري" إلى سوق المدينة مروراً ببقايا أزقة "الجديدة" الضيقة. السيرُ ببطء خطوة خطوة، والتملي بالجدران ووجوه البشر والسماء والتمتع بالضجيج ومناداة الباعة بشوقٍ لا

يعرفه من لم يغادر مدينته.

فتحت الباب المفضي إلى الحديقة الصغيرة. رشقتني نسمات الفجر، فعببت منها عميقاً، منصتاً لضجة العصافير على شجرة نارنج تستقيم جوار باب البيت، هي كل ما تبقى من حديقة أبي إذ حولوها وقت الحصار إلى دكانين مؤجرين إلى مصلح سيارات. خطوت نحو الباب وكأنني ذاك الطفل المبكر كل فجر إلى فرن خبز حاج "جاسم". ملأتني النشوة، فندمت على تبرّمي من ذلك المشوار، وتمنيتُ لو عدتُ طفلا من جديد كي أُسعِدُ أمي التي كانت تتضايق من تبّرمي. أمي ماتت في غيابي. كدت أجهش في غمرة الفضة المتساقطة من سماء بيت طفولتي.. من سماء أمي، وشجرة نارنج أبي الضاجة بعصافيرها. قلت مع نفسي:

ـ ستبكي مع كل خطوة إذن!.

كنت أقف قرب الباب الحديدي العريض وشجرة النارنج. قلت مع نفسي:

ـ لن أستطيع التمتع بتراب وجدران وهواء وضجيج ووجوه مدينتي ما دمت محملا بهذا الشجن. ففي كل خطوة من باب البيت الداخلية إلى باب البيت الخارجية رواية تحكي قصتي مع التراب والمكان. وعَبر الباب وما أن أخطو في الشارع حتى أجد نفسي في حومة رفاق الطفولة وتاريخ نشأتي. ستبكيني كل خطوة إذن وسوف لن أصل إلى سوق التجار المسقوف إلا بعد سنوات تعادل عمري.

خطوت بحزم، ليس لدي وقت وهاجسي منذ يومين مختلف،

لم أبح به إلى أكثر الناس قرباً. كنت مشغولا بمصير رجل مرَّ خطفا بحياتي وبقى مثل ملاك يحضرني وجهه الآن، وكأنه يجلس جواري حتى أني أستطيع وبعد أكثر من ثلاثين عاما سماع نبرة صوته وهو يحدثني همساً في غرفة بائسة بفرع دائرة ـ زراعة "أل بدير" ـ . وجه مدور أبيض مريّع يشع نوراً. ينظر نحو الآخرين وكأنه يطل عليهم من عالمٍ أخر غير عالمنا. هذا الانطباع رسخ في نفسي أول ما دخلتُ تلك الدائرة، كمشرف تعاوني صغير السن يرتدي بنطلون چارلس المعيب في تلك البيئة القروية، ويطلق شعره الناعم مسدلا حتى أسفل الكتف. وقتها كنت لا أعير للمحيط شأناً في المدينة فكيف في الناحية النائية التي لا أمكث فيها إلا وقت العمل. وجه عاشرني، وظلَّ يزحم لحظتي كلما دخلتُ كنيسة. وجهٌ يشعُ سلاماً وحباً.. وجه نبي.. تسللت قائلا مع نفسي:

ـ فرصة أسلك الطريق إلى سوق التجار وحيداً. أتناول الفطور ببسطة جابر الشطاوي، باقلاء وبيض، وأتوجه نحو كراج أل بدير حينما يقترب النهار من الانتصاف!.

لكنني.. وجدت نفسي غاطساً بالشجن ما أن عبرت عتبة باب الغرفة المطلة على حديقة الدار المندثرة. نفضتُ رأسي كما كنت أفعل في الجبل والمنفى حينما تحاصرني الأشواق. نفضته وخطوت بحزم نحو الباب. أزحت لسان القفل. سحبتُ الدرفة وعبرت العتبة العالية فوجدتني بغتة محاصراً بأخيلة الطفولة من جديد. تسمرتُ جوار الباب شارداً، أسكرتني أخيلة الصبا حينما كنت أقع في الحب بغتة وأعارك من أجله وأسهر وأكافح وأكتب رسائل الغرام لأخسر في نهاية المطاف في قصص حبي الكثار.

شخصت غريزيا نحو باب دار مقابل أذاقني الويل في طفولتي وصباي وكتبت عن الصبية "أمل" ذات العينين الخضراوين قصصاً وكدت أُغتَصَبْ بسبب وردة جوري سرقتها من بستان "عبيد" المندثر.

ـ ليس للحنين ضفاف ولا مرسى!.

هتفتُ بصوت عالٍ أمتزج مع ضجة العصافير على شجرة النارنج المطلة أغصانها من خلف السياج الواطئ، أعدت الهاتف بنشوة وخطوتُ باتجاه المدينة لابساً ثوباً تعلمته بين جنود الجبهات وقت الحرب، والثوار في الجبل، وفي المنفى.. ثوب التماسك كي أستطيع فعل شيء، لعلي أصل إلى ساحل ذاك الملاك القديم.. الوجه النبي. خطوت مستمتعاً بالنسيم، بالدكاكين المغلقة، بالشوارع الخالية. خطوتُ شارداً مع وجه عاشر منفاي وتحول مجرد رؤيته حلماً طالما حلمتُ به في الجبل والمنفى. كنت أنقل الخطو راجف القلب، غراً، كأنني لم أرَ الهول في جبهات الحرب والجبل حيث الجنود ورفاقي الثوار احتضروا حتى الموت بين يديَّ.

الأمر مع ملاك أل بدير مختلفٌ..

ـ سأعثر عليه وأعتنقه هذه المرة دون وجلٍ ولا خجلٍ بل عزمت على مكاشفته بمشاعري الجارفة وشوقي وذكراه ظلت تذيقني نشوةً لا يباح بها حتى لأقرب الناس. نشوة أمدتني بالقوة في مواقف كدتُ أضعف فيها في المعتقل!.

لكن:

ـ هل سأجده هذا اليوم؟!.

أنعشني الخاطر، فانزلقتُ مبتلاً برذاذ الفجر. أخطو في الشوارع التي بدأت تغصُ بعمالٍ وجوههم صخرية صدئة، وخطاهم متعثرة وعيونهم شاردة. بلغتُ السوق المسقوف لأخرج من جوفه عابراً الشارع إلى مقهى يطل على النهر، وعلى تخت خشبي منزوٍ جلست شارداً أتأمل كل ذرة وصوت ووجه وجدار ولون شاعراً بنصرٍ لا يفهمه سواي.. فهاأنذا لم أمُت في المخاض الذي مررت به.. بقيت حياً لأشاهد انهيار من شرّدني.. هاأنذا أجلس على كرسي في مقهى "قدوري" القديمة شاعراً بالنشوة وكأنني ذاك الشاب الثوري الفتي الذي كان يظن أن بمقدوره تغيير العالم. سرحتُ قليلا والشمس مدّتْ ذهبها إلى حافة الرصيف عبر واجهة المقهى الزجاجية.. بينما وجدتُ نفسي في ذلك اليوم الذي دخلتُ فيه أول مرة إلى دائرة زراعة آل بدير النائية، وقتها لم أجد سواه في غرفة النّظار التعاونيين. عرفني بنفسه قائلا:

ـ أبو ليلى ـ جاسم شبلي ـ ناظر تعاوني

عرفتُ نفسي، وعرفتُ أن خبر تعييني مشرفاً تعاونياً لديهم قد وصل. إذ قال لي أن الجميع ينتظرك لكنهم خرجوا إلى الحقول بمن فيهم مدير الدائرة. ولما كان كل شيء في ذاك الزمن محسوباً وواضحاً فقد عرفوا أيضا بأنني لم أكن بعثياً، وذلك ما جعله ينتهز وجودنا وحيدين في الغرفة كي يحكي لي بمرارة تشي بها نبرة صوته عن جهوده المضنية مع زملائه منذ بداية السبعينيات كي يقنعوا الفلاحين بفكرة ـ الجمعيات التعاونية ـ إذ

كانوا يؤمنون بأن في ذلك خلاصاً لهم من الفقر المدقع إلى أن نجحوا في هيكلة قرابة ستة عشر جمعية غطت ريف ناحية آل بدير كلها، عند هذه النقطة كفَّ عن الكلام وفي قسماته ألمٌ وحزن وأسف جعلني أحثه على القول:

ـ ليَشْ سِكَتْتْ!. كَمْلْ!. ولا تخف!

ردَّ واثقاً:

ـ من وجهك عرفتك لا من الكلام اللي وصل قبلك!. ما أخاف منك لكن شنو الفائدة.. صارت الجمعيات دوائر أمن بدلاً من جمعيات تساعد فقراء الفلاحين!.

قالها بمرارة.

لم أزل وأنا أحدق عبر زجاج مقهى "قدوري" بعد أكثر من خمسة وعشرين عاما أسمع نبرة الأسف في صوته المخذول وهو يجلس منهكاً على كرسي الدائرة الحديدي قبالة المنضدة التي أجلس خلفها. قلت له:

ـ أبو ليلى.. أنت يائس!.

التفتَ نحويَّ بهدوءٍ وببطءٍ وقال بصوتٍ خافتٍ:

ـ لا مو يائِسْ بسْ مَاكوْ عَدَالْه، كلْ ما حولَكْ يكْذِبْ والفكرة اللي فِنَيْتْ أكثر من سَبِعْ سِنِيْنْ منْ عُمْرِي عَليها طلْعَتْ چذبه لا الفَقِيرْ هَمهُمْ ولا فِكْرَة المُساواة فكرْتَهمْ!.

منذ ذلك اللقاء صرنا نختلس الخلوة في الدائرة، لنفضي لبعضٍ همنا المتشابه، فنحكي بوضوح عن بنية الكذب والتملق السائدة بين الموظفين، ساخرين من ذِّل الرجال مزدوجي

السلوك أكثر ممن كان جلاداً بالسليقة ومصطفاً مع السلطة.

في لحظة وجدٍ باغتني بسؤال محرج:

ـ أنتَ نَبيلْ لَيْشْ ما تترِكْ الشيوعية وتْرِدْ للإسلام.. أصلَكْ وفَصْلَكْ!.

كان في نبرة صوته حباً وحرقة وكأنه بمثابة أخٍ كبيرٍ. كان ذاك الحس يسعدني ويبهج لحظتي في تلك الغرفة الرثة المغبرة النوافذ والخزانات وفوضى الأوراق المكدسة وكأنها قطعة مما وصفه "كافكا" في محاكمته. أمعنتُ في الصمت والتحديق في ملامحه الصافية، في عينيه المبحرتين المنتظرتين ما أقوله.. أمعنتُ في شجن قسماته وصفائها، فأحسست كأنه ولي من أولياء الله، من الذين كنتُ أتخيل أشكالهم في طفولتي، حينما تقصّ عليّ أمي في ليالي الشتاء الباردة قصصهم، أو يقص المقرئ من على منبر جامع "حي العصري" قصصاً عن شيعة قديسين ضحوا من أجل الكلمة عقب شهادة الحسين. وجدته مثلهم، لكنه لا يعرف مدى حيرتي منذ بواكير وعيي في البحث عن سر الوجود والإنسان والخلق، وحيرتي مستمرة حتى هذه اللحظة، وأنا أجلس على كرسي في مقهى وأتذكره بعد قرابة خمسة وعشرين عاماً.

سألني في خلوة غرفة بائسة وأنا كنت ضائعا في يمّ الخلق والفكر والأسئلة وحاسداً قناعته المطلقة بمدينة "علي" الفاضلة المستحيلة والتي فَشلَ شيخي وشيخه عليٌّ بن أبي طالب في أقامتها زمن الإسلام في ذروته، فاغتيل وهو يركع فجراً في جامع في الكوفة.

قلت بنبرة خافتة:

ـ وهل تعتقد يا أبا ليلى أن في ذلك جدوى يصّلح الوضع؟!.

أربكه السؤال وجعله يقترب مني زاحفاً بكرسيه قليلا ليقول بعد صمتٍ طويلٍ:

ـ راح تُرْبِكْ كل وضعي يا ابن المدينة الخنافس بشعرك الطويل وملابسك العجيبة الضاحك طوال الوقت وكأن الدنيا مجرد لعبة.. أربكتني!.

وقتها لم أستطع شرح رؤيتي للدنيا لكنني قلت له همساً:

ـ لا تظن يا أبا ليلى أن كل من لا يصلي ملحد.. وغير المسلم سيئ!.

ردّ لاهثاً وكأنه أبي في لحظة خوف غريزي:

ـ أخاف عليك من عذاب الآخرة والنار وأنت الطيب الشريف!.

قلت له:

ـ لا تخف عليّ فأن ربك إن كان عادلا حقاً فستجدني جوارك في جنة الخلد!.

وأطلقتُ ضحكةً مجلجلة جعلته يرمقني بذهول ويصمت قبل أن يتمالك نفسه ويهزُّ رأسه يائساً من صلاحي، لكنه أزداد تشبثاً بيّ كنافذةٍ وحيدةٍ لسجينِ زنزانةٍ انفراديةٍ يفضي لها بما كان يضطرم فيه ويحتدم. ظل مُربكاً طوال زمن وجودي كمشرف تعاوني في الدائرة، مُربكاً يسعى للانفراد بيّ وقت انشغال

الجميع كي ينفّس عما يثقله دون خوفٍ من واشٍ.

خنقتني الأشواق. دفعتُ ثمن الشاي، وغادرت المقهى. غيرت خطتي بشأن الفطور، فمن طرف الشارع لمحتُ حشداً من المعارف، فالح عبد حاچم، فيصل القصاب، عطية عبادي، سعد كتان، والعديد من المعارف يحيطون بجابر الشطاوي المنهمك في أعداد أطباق الباقلاء بالدهن. تسللتُ من خلال مقهى قريب مفتوح على فرعين متلافيا مرآهم، وإلا سوف لا أستطيع رؤية "أبا ليلى". توجهتُ صوب سينما الجمهورية لا يشغلني سوى العثور على سيارةٍ متوجهةٍ نحو (آل بدير). فالگراج نُقِلَ من الگرفت إلى مساحة خلفية اقتطعتْ من ساحة متوسطة الديوانية التي تبعد عن مقهى "قدوري" مئة متر. لم أترك لذاكرتي في الشارع عنانها، فقد شكلت وصاغت جدرانه وأزقته وأحداثه مهجة طفولتي وصباي، وطّبعتْ كينونتي بأصابعها. كغزالة شاردة من النسيم قطعت المسافة شاردا من سرائر مكاني وتفاصيل تملأ كتباً، فوجدت نفسي في الساحة الخربة القديمة، جوار سيارة أجرة، ينادي صاحبها طلباً لراكب واحد كي يتحرك إلى آل بدير. اقتربت منه ودسست نفسي على المقعد الخلفي جوار شابين رثي الثياب تنازعا مع السائق على ثمن الأجرة، فتدخلت ناسيا تحذيرات أخوتي بعدم تبيان أني قادم من أوربا خوفا من الخطف، كنت حالماً واثقاً من أبناء مدينتي، أحملق ساهياً بالأفقِ الضائعِ، بالشمسِ الساطعةِ، في نثار النخيل البعيد، أحاول تجميع تفاصيلَ تخصني معه، مفكراً بمصيره وحاله الآن.

بعد أيام من دوامي في تلك الدائرة النائية عرفت أن لديه سبع بنات كبراهن "ليلى" ولم يرزق بولدٍ، وكان يردد شاكراً حكمة

الله غير آبهٍ لجنس المولود، كما أسرَّ لي في حواراتنا التي تشعّبت لتشمل تفاصيل التفاصيل فجعلتنا نقترب من بعضٍ إلى حدود وكأننا واحد حتى أنني مرة قرأت عليه بيت الشاعر ـ طارق ياسين ـ:

(تشبهني وأشبهك

والشبه ثاني وضوح

من تضيع تلگاني

وتلگاني من تضيعني

ومن نتلاگه أني وياك

نتضيع سوه ونحتار

ظلي وظلك يصيرن رقم واحد).

فأنفجر بضحكة خجلٍ خافتة وعلّقَ:

ـ ما تگلي وين تلگي هاي الأشعار!.

كنت منغمراً بتلك اللحظة القديمة المنبعثة من تراب السنين، منغمراً بدهشة عينيه الواسعتين المحدقتين صوبي في الغرفة البائسة، منغمراً بطيفه وهو يرسو من عاصفة ضحكته الخافتة ويعلق، منغمراً في فيض نشوة التذكر أجمّع فصوص مشاعرنا المشتركة حينما أُقحِمْتُ في حوارٍ أثير من جديد حول الأجرة بين السائق والشابين إذ دعوني لحسم الخلاف.

فقلت للسائق:

ـ أني أدفع الفرق!.

أراد التعليق فقلت قافلا الحوار:

ـ رجاءً يكفي!.

صمت الجميع، ليتعالى أزيز محرك السيارة الرتيب وضجيج تلك الأيام، فرأيته في ظهيرة يومٍ قائظ، يدخل عليّ غرفتي البائسة، بوجه مرتبكٍ، متسائلٍ، مهموم ليقول:

ـ باچر انتخابات النقابة!.

ـ أدري!.

ـ أعرفك تدري.. لكن مِنُ راح تنتخب؟!.

كان محتقن الوجه. ينضح في وقفته على بعد مترٍ من المنضدةِ الفاصلةِ بيننا، وكأن ما سوف أقوله حاسماً بالنسبة له. أجبته:

ـ هل توجد قائمة أخرى؟!.

أحرجه السؤال فصمت للحظة. كنت وقتها أفكر في اللعبة السمجة.. قائمة واحدة، وورقتين، واحدة بيضاء والأخرى خضراء. فمن يوافق على القائمة الوحيدة يرفع الخضراء، ومن يعترض يرفع البيضاء وأمام الجميع. أجاب شاردا:

ـ أعرف ما تريد تگوله، لكنهم سفلة.. مو سفلة وبس.. أسفل خلق الله أش لون أرفع ورقتهم الخضره؟!.

كان يكلمني شارداً وكأنه يكلم نفسه، ويحملق في وجهي مثل من يلاحق نجما بعيدا. ثم سألني سؤالاً كرره أكثر من مرة:

ـ شنو راح ترفع ورقتهم الخضره؟!.

بدأ ينضح، وحبيبات العرق تتلألأ على جبينه الناصع منتظراً كلمتي. ارتبكت في موقف من أشّد المواقف إرباكاً في عمري، فماذا أقول وهو مؤمن من خلال نسيج علاقتنا برفضي دجلهم وكذبهم وضحالتهم، لكن الشيء الذي بت واثقاً منه، أنه لم يجرب قسوتهم. فأنا إلى ذلك التاريخ أواسط عام 1979 ذقتُ نذالتهم ثلاث مرات، حينما، في كل مرة أُخَطف من الشارع وأحلّ في أقبيتهم حيث أذاقوني الذِلَّ صافياً، بالضرب، والشتم، وتكبيل اليدين، وتكميم الفم، وعصب العينين حتى أشعروني أنني وحيد في الدنيا، ووحدهم من يقرر مصيري.. فعدتُ كائناً بائساً. وتحول الحلم من إعادة بناء العالم إلى رغبة في رؤية الشارع وتنفس هوائه ولو لمرة واحدة فقط.

وثقت وهو يحاصرني ناضحاً، أنه لم يتعرض لتجربة الإذلال تلك، فبات يعتقد أن قول الحق فضيلة كما تملي عليه الشريعة والمبدأ، وقتها كانت الثورة الإيرانية في أوجها، والخميني الذي يسميه " حاج جاسم" (السيد) كلما مرّ ذكره، والذي كانت تصريحاته عبر أجهزة الأعلام، أكثر من جمرة تشعل حواس أبناء الطائفة. باغته بالسؤال:

ـ أبو ليلى أنت معتقل؟!.

رمقني باستفهام وقال:

- لا!.

- ...!.

حينما طال صمتي أردف مدركاً مغزى كلامي:

ـ تعتقد يعني لو چِنِتْ معتقل گبل راح أخاف منهم!.

- ..!.

لم أعلق.

في اليوم التالي جمعونا في قاعة بناية واسعة، لم أعثر عليها حينما عدتُ بعد قرابة خمسة وعشرين عاما، لكن ما أتذكره من ذلك اليوم الحشد المتجه نحو تلك القاعة التي كانت بطرف الناحية قرب المستوصف الجديد. حشد مبتهج عدا ثلاثة جاسم شبلي و "هاتف حسين" الناظر من أهل الدغارة الشيوعي الذي سيلتحق بثوار الجبل ويحاصر بحملة الأنفال عام 1988 في "گرميان" ويلقى القبض عليه ويعدم في سجن "أبو غريب".

دخلنا القاعة. عيون الجمع كانت تحملق وتتابع حركتنا، منتظرةً متوترةً، وكأن الانتخابات أقيمت كي تختبر ولائنا ليس إلا. حشدٌ من القرويين الهتافين بحياة البعث، كلما تقدم واحد، رفع ورقة خضراء يريها للجميع، قبل أن يضعها في الصندوق الوحيد. نوديَّ على أسمي. خطوت نحو الفسحة الأمامية غير آبه بالعيون الملاحقة خطوي. كنت مشغولاً بعينيه المتتبعتين خطوي، المقترب من طاولة البطاقات، على عجل رفعت بطاقة خضراء، وأسرعت بدسها في الصندوق، والتفت نحو الجمهور، رأيته، يرمقني بدهشة ممزوجة بارتياح، تحاشيت عينيه شاعراً بالذنب وكأنني خِنْتُ ما كنا نسرّ به لبعضٍ في خلوة غرفة النظار البائسة شاكين من حيف بشر شُوهوا!.

أربكني ذلك الشعور فوقفت لصق جدار القاعة لاهثاً أتصببُ عرقاً، أنصت للمنادي وهو ينطق باسمه، خطا ببطءٍ كتم

الأنفاس، كانت كل "آل بدير" تنتظر تلك اللحظة بمزيجٍ من الفضولِ والرغبة الجارفة في كشف موقف ملاكها مما كان يجري ذاك الزمن. تتبعتهُ مع عيون الحشد حتى توقف جوار طاولة البطاقات وصندوق الاقتراع. تخيلته تلك اللحظة "هاملت" في مسرحية شكسبير الخالدة، لكن هنا في ضيق بيئة ريفية عشائرية جعلتها سلطة البعث ساحة للنميمة والتجسس وفقدان الضمير. رفع ذراعه بهدوء وكأنه ربّ القرار، وليس فرداً معزولاً. مدَّها ببطٍ أيضاً فتجسدتْ كفها الظاهرة من كم قميصه الأبيض، ورفع بطاقة بيضاء، لم يدسها في شق الصندوق، بل التفت نحو الحشد، وحدق بعينين ساخرتين جعلتني أشعر بالخجل والعار تلك اللحظة. رمقهم باحتقار. وشخص نحوي وفي نظرته عتب. لوَّحَ بالبطاقة الرافضة، هزّها قبل أن يسقطها في شق الصندوق، مما جعل الأشد جبناً ينطلق بهتاف يشيد بحياة البعث والثورة ويخّون كل معادٍ. لم يهزّه سيل الهتافات والشتم لأعداء الثورة، رمى خطوه بكل هدوء، عائداً إلى مكان وقفته جواري وعلى شفتيه بسمه، وفي عينيه شرود.

قلت مع نفسي:

ـ سيرى هذا القديس الويل!.

ـ هل يستطع نبي مهضوم مثل المسيح، مثله التألق زمن القتل والذل؟!.

كنتُ، حاسماً مع نفسي، عارفاً فداحة التصريح بالموقف والدفاع الصادق عنه، واثقاً من الأذى والذل التي سوف يلقاه صاحبي.

وذلك ما جرى له فعلاً، ففي الليلة نفسها اقتحموا بيته وأخذوه، وسط صراخ بناته السبع وزوجته، ضيعوه قرابة ستة أشهر. وقتها نُسِبْتُ لعملٍ في دوائر أخرى، لجان تسويق حبوب في "عفك" ، ولجان تسويق رز في "الشامية"، لكنه عاش فيَّ في كل لحظة، يجلس معي، ويقوم، ويسير، في النوم أراه بأحلامي، في الصحو أشرد متخيلا ظلمة الزنزانة التي يمكث فيها وحيداً، ممزق الثياب، مكبلاً، يصرخ ألماً وقت التحقيق في حفلة التعذيب.

كنت أسأل عنه حينما أحل في "أل بدير" لاستلام مرتبي الشهري فيجيبونني همساً:

ـ بعده عدهم!.

إلى أن باغتني يوماً، كنت ذاهباً لاستلام مرتبي، فلمحته عبر زجاج السيارة يجلس في المقهى على الرصيف الضيق المقابل، فندت مني صرخة خافتة، وكأني وقعتُ على كنزٍ. فتحتُ البابَ، وأسرعتُ إليه. عانقته وشددت جسده إليّ، وكأنني أريد التيقن من وجوده الحي. شكرني بلهجة خافتة، جلستُ جواره، ورحت أتأمل قسماته المتعبة، وجدتها مخذولةً فقدت كبريائها. أصبح صوته خافتاً، حذراً. تحدثَ باختصارٍ شديدٍ، لم يجبني عن أي سؤال، يتعلق بما فعلوه به طوال نصف عام، الشيء الوحيد الذي عرفته، أنهم أطلقوا سراحه بعدما تأكدوا أن لا علاقة له بأيٍ من التنظيمات الدينية الشيعية السرية. كان ذلك في أواخر 1979.

وعقبَ كل جملة يتلفت يمنة ويسره، ويُدني رأسه حتى يكاد يلاصق وجهي قبل أن يجيب على أسئلتي. بِتُ واثقاً أن شيئاً ما

تغير في كيانه وهو يتحاشى الإجابة على أسئلتي الدقيقة عن تفاصيل يوم الزنزانة الطويل:

- الحمد لله.. الحمد لله. شممتُ الهواء.. الحمد لله!.

قلت مع نفسي وأنا أمعن فيه تأملاً:

- الكلاب أخذوا شيئا من بهائه!.

يئست من استعادة لحظة بوح واحدة منه، مما كنا نفعله في غرفة النظار، وقت خلو الدائرة وانشغال الموظفين، في تفقد الحقول. يئست. قمت من كرسيَّ فقام، تعانقنا وبأذني همس جملته بودٍ ومحبة:

- دير بالك على نفسك!.

وهذا ما لم أفعله قط.

- كيف يدير الواحد منا باله على نفسه، وهو منشغل بهموم الناس، ولديه موقف مما يجري حوله؟!.

كانت السيارة تنهب الطريق المبلط عابرة القرى الصغيرة على جانبي الطريق، مضارب الغجر، مخازن الأسلحة القديمة، ناحية نفر، لدي في كل ما أمرّ به خطفاً قصةً وحكايةً. حرصتُ على عدم الانزلاق إلى مناحي تلك القصص، كي أتمسك بطيف قديسي "جاسم شبلي" الذي أحلم برؤيته وقد كبرَ وأمعّنَ في التأملِ والزهدِ. عبرنا "عفك" ولم يبق سوى كيلومترات عديدة ونصل، كنت شارداً منفصلاً تماما عن الركاب وما كانوا يتحدثون فيه، لكنني تدخلتُ مرة حينما أشعل أحدهم سيجارة، فطلبت منه إطفائها بسبب متاعبي مع التنفس فأنصاع معتذراً،

عدا هذا كنت سارحاً مع أفق الصحراء المترامية على جانبي الطريق، وطيف ملاكي البعيد الغائر في الماضي الحميم:

ـ هل سأعثر عليه في المقهى مثلاً، كما وجدته حينما أطلقوه قبل أكثر من خمسة وعشرين عاماً؟!.

أمّلتُ نفسي بذلك، وهبطت من جديد محاولا لمَّ شتات تفاصيل صغيرة تخص علاقتنا.. لا أدري كيف مرت تلك الفترة المحتدمة. سافرت إلى بيروت، وعدتُ. تنقلتُ بين دوائر عدة، وتزوجتُ، في نفس الوقت قامت الحرب مع إيران.. كنت في أيام زواجي الأولى. في مساء معتم أخذت زوجتي إلى الطبيب لفحص الحمل، وفي عتمة فرع جانبي يتفرع من شارع الصيدليات في صوب الشامية الصغير، أضاءت مصابيح سيارة قادمة من خلفنا قامته المتجه صوبنا كان يسير بخطواته المتمهلة، هزّني الفرح هزاً إذ كنتُ قد حكيت لها عنه كل التفاصيل التي سردتها في السطور السابقة.

قلنا بصوت واحد ضاحكين:

ـ بعدك عَدِلْ!.

كان هاجس قتلنا حقيقةً، تزحم كل لحظة تمرّ بنا!. بعد التحية الحارة، عرفته قائلا:

ـ "جاسم شبلي" الذي حدثك عنه!.

قهقه مبتهجاً وقال:

ـ أش حچت يا معّود تره أنا إنسان بسيط لا تكبرني تره يكتلوني ودمي برگبتك يصير!.

كنا نتبادل الحديث في العتمة وعلى ضوء مصابيح السيارات المارقة التي تضيء وجهي تارة، وتضيء وجهه في أخرى. أشرت لزوجتي معرفاً بها. سألته عن سبب مجيئه قال لي:

ـ لدي مشاكل بالكِليةِ من يوم أخذوني!.

كان يراجع طبيباً مختصاً. ودعّنا بعضنا. وكل منا يأمل باللقاء مرة أخرى ما دمنا أحياءً، لا سيما أننا نعمل في دائرةٍ واحدةٍ، لكن ما حدث بعد ذلك يشبه الزلال، كما ذكرت لم أنصع لنصيحته، بل وجدتني أجهر بكل شيء، وحينما ساقوني جندياً إلى جبهات الحرب.. هربت إلى الثوار في الجبل لأجد نفسي بعد عشر سنين لاجئاً منسياً في الدانمرك أعاني من رئتين تعطَّلَ أكثر من نصفيهما في غارة قصفت قاعدتنا بغازاتٍ سامة في الجبل، ووجدتني أنتظر أكثر من عشر أخرى حتى يحتل الأمريكان "عراقيَّ" كي أستطيع العودة وشم نسيم وتراب وأنفاس أسلافي.

زلزال عصف بي عصفاً وشتت حواسي وكياني، وهاأنذا أحاول تجميع ما أستطيع بالبحث، عمّن رسخ بنفسي طوال النفي بين ثوار الجبل ومعسكرات اللجوء ولغة غريبة تزحم يومي، من بعيد وعبر زجاج السيارة الأمامي بانت بقعة سوداء داكنة ترصع أفقاً أصفر ذهبياً، سرعان ما كبرت، فبدت بناياتها الواطئة قال السائق:

ـ وصلنا بالسلامة!.

عبر زجاج النافذة تأملت البيوت. الناحية توسعت قليلا، لكنها بدت كالحة بائسة بالمقارنة مع صورتها المحفوظة في ذاكرتي

القائمة من رماد السنين، وجدتها شديدة البؤس، لحظتها أدركت هول ما جرى في غيابي، ترجّلتُ وسط السوق الصغير، لم يعرفني أحدٌ حتى أن ناظراً تعاونيا كنتُ أشرف على جمعيته شَخَصَ نحوي كغريب وسارَ إلى حال سبيله. لم أسع كي أذكره. سرتُ صوب الدائرة. اقتربتُ منها. البناء نفسه لكن بدا هرماً مشققاً بائساً. ولجت الباب ودخلتُ إلى اليمين، حيث غرفة المدير، هبَّ نحوي من كرسيه شخص لم أعرفه للوهلة الأولى، ودار من خلف المنضدة العريضة. عانقني. وحينما أبعدته قليلا عقب العناق وتفرست في قسماته عرفته "ضياء" كان طالباً معي في المعهد الزراعي الفني ببغداد. أخبرني أنه عاد قبل أشهر من إيران، وأنه خاض الكفاح المسلح بصفوف "قوات بدر" التابعة للحكيم. أصرّ في النهاية على تناول الغداء معه في بيته، فعلت ذلك.

خضت مع موظفي دائرتي القديمة تفاصيل لم تمس "جاسم" كنت وجلاً وخائفاً مما قد يجلبه السؤال من فاجعة، لكنني نفضت رأسي ونهرت نفسي قائلا:

ـ لم جئت إذن؟!.

ودون مقدمات قلت:

ـ أگدر أشوف "جاسم شبلي" أبو ليلى؟!.

كأنني فجرتُ قنبلةً في الغرفةِ، ساد صمت طويل كثيف سمح لي الغور في الوجوه التي كانت في القاعة تهتف بحياة البعث والتي أخرسها سؤالي. تَشاغَلَتْ في التحديق بأرض الغرفة، في الباب، في الشباك البعيد عن موقع جلوسي. أربكني الموقف،

فكررت السؤال دون جدوى، إلى أن بادرَ المدير الجديد قائلا بصوت خافت:

ـ أستشهد منذ منتصف الثمانينات في المعتقل، وما عثروا أهله على جثته بالمقابر الجماعية!.

أحسستُ بشيءٍ ما ينكسر في نفسي، كأنني فقدتُ ركناً جديداً من أركانها، تمالكتُ نفسي حتى لحظة مغادرة "آل بدير"، لكن حينما بلغت السيارة طرف الديوانية ترجلتُ منها وركضتُ مثل مجنونٍ في البريةِ صارخاً صراخا مبهماً.. ركضتُ. وركضتُ حتى عتبة بيوت الغجر الضاجة بالغناء. وعلى عتبة غجرية سقطت على وجهي ناحباً!.

الدنمرك 2005 - 11 - 5

3- طفلان ضائعان

لم يمض على انتقاله في سكن مستقل غير فترة وجيزة حتى جاء إلى أمه في مكان عملها ناحلاً جائعاً مفلساً مريضاً، بالكاد يستطيع التنفس حيث عاودته نوبات الربو الذي لازم طفولته، جاء وأفضى لها بكل قصته والتي لم تخبرني بتفاصيلها إلا بالتقسيط المحسوب فهي خير من تعرفني بعد أعوام حبنا العشرين. كنت متضايقا جدا من أعادته إلى البيت. إذ انه اشتكانا مرارا إلي "البلدية" مدعياً أنني أضربه وأرعبه كي يفوز بسكن

مستقل فتشبثتُ به وأقنعت المشرف الاجتماعي بأنه سينال مراده حالما يبلغ الثامنة عشرة. عاتبته:

ـ ليش يا بوي؟

ـ أريد أحصل شقة بسرعة!!

ـ وتتهمني بالعنف العائلي!

أطعَمَتهُ...اشترت له الأدوية وعاملته بحنان مما جعله يعترف لها بأنه دخّن الحشيش منذ الأشهر الأولى التي وصل فيها، ويريد تركها، ظل معنا قرابة شهرين لنكتشف أنهُ يسحب من حسابه المصرفي بالناقص مبالغ كبيرة حتى أنه عجز عن تسديد الإيجار.

كنتُ ألزم الصمت المطعون في حديقة بيتنا الصغيرة شارداً من وجه زوجتي المتقد، المتكسر، المخذول، والمتماسك بغضبه من لحظة الانهيار التي أراها بعمق عينيها السوداويين الواسعتين، ومن وجهه المتبلد المحطم بنظراته الكسيرة، المستنجدة، والمصوبة نحو حياد ملامحي المحدقة بسماء الغروب الشاحبة . انفصلت عن المشهد تماماً رائياً نفسي في باحة دار أهلي الكبيرة في غروب مثل هذا وأبي ينهال عليّ بعصاه الغليظة وصراخي الموجوع المستنجد بأمي التي تهرع نحونا لتحميني وتبتعد بيّ إلى طرف الباحة متلمسةً أنحاء جسمي كي تتوثق من عدم إصابتي مرددة بمرارة :

ـ ألف مرة گلتُلك صير آدمي، ولا تجيب الإهانة لنفسك.

وقتها كنتُ أشعر بين ذراعيها وكأنها انتشلتني من الجحيم إلى

فسحة حضنها الآمنة، فألزم الصمت مسترخياً بين ذراعيها بكل ما بجسدي من ودٍ راغباً في النوم ونسيان كل شيء.. كل شيء.. الدنيا والغروب، أبي واللعب والذنوب. النوم والذوبان في حضنها الحميم.. ها هي عيناي تطل عليّ من عينيه المتوسلتين.. هاأنذا أجدني محاصراً بفيزيقية هذا الجسد الطالع من جسدي الجالس قبالتي. كانت زوجتي تصرخ وقد أعماها الدور الذي مثله وجعلها تمنحه الأمان وتمده بحاجته من متطلبات يومه.

ـ تشرب قهوتك وتذهب إلى شقتك ولا تدوس عتبة بيتي!.

ركّز نظراته الذليلة بعيني اللتين عادتا من غروب دار أهلي الساطع هذي اللحظة بكل تفاصيله الدارسة. اعتنقته برمش عيني وقلتُ:

ـ هذا المفتاح خذ. أذهب.. سأمر عليك!

ليلتها تسممنا. غادرنا النوم والصحو، الكلام والصمت، بقينا نتضور ألماً في صمت الليل. هربتُ من غرفة النوم. غصتُ في حيرتي مستعيداً كل ما حكاه لها في عودته الأخيرة الكسيرة، والذي كان يخشى أن يبوح به لي لسببٍ بسيط هو أنني أبحتُ له كل شيء، الخمر والدين، النساء والعفة، هو من يختار وحذرته من العنف والمخدرات والجريمة، ودعوته كي يكون صديقاً لي.

وجدته ينتظرني بقساماتٍ ذابلة وعينين حمراوين متورمتين، عانقني بعنفٍ وحرارة كمن يريد الالتصاق بيّ والبقاء هكذا، شمني وطبع على وجنتيّ المرتجفتين قبلاته الحميمة، فقدرت أي ليلة صعبة قضاها وحيداً. تأرجحتُ على حافة الانهيار بين ذراعيه الفتيتين الملتفتين حولي. تماسكت بعناء ورائحته القديمة

القادمة من طراوة ملمسه العاري وهو أبن السنتين يغفو بحضني على صوتي الرتيب المترنم:

"غزاله غزلوك .. بالماي دعبلوكِ"

تماسكتُ متغلباً على خدري القادم من عطر جسده الغافي في حضني. نفس الجسد الصغير المتعلم النطق لتوه الذي كان يقف أمامي بملامحه الجدية المحتدمة، وهو يحاول ثني عن الالتحاق بجبهة الحرب مع إيران مردداً :

ـ بابا .. بابا .. لا تروح تره يكتلوك!.

حازاً بكفه المنبسطة رقبته، ظللتُ طوال السنين الخمس عشرة التي تركناه فيها ملتحقين بثوار الجبل أتذكر تلك اللحظات التي تجعلني أبكي فراقه سراً. تماسكتُ، وفللت ذراعيه برفقٍ، نافضاً عن كياني فيض الحنين المكبوت، حاورته بمنطق العقل. كان يلزم الصمت وملامحه حائرةً بين إغراء ليلتي نهاية الأسبوع وكلامي الواضح القاطع. كان يحدق بعيداً. شارداً إلى حيث لا أدري وأنا أدعوه للخلاص نهائياً من رغبته المريضة في ضرب الآخرين التي أباح لي بها حال وصولنا إلى الشام، وكان يمارسها كل نهاية أسبوع ويلوذ بالفرار من الشرطة معتبراً نجاته نصراً وفخراً. كان لا يرد على أسئلتي. يخوض في صمته الذي يجعلني للحظات خاطفة أكاد أسقط في اليأس مستسلماً ليقين خرابه الراسخ، فهو ابن الحروب حقاً ولد بعد سنتين من الحرب مع إيران، وعاش مخاض الحرب الأخيرة والحصار، ولكن أعاود ثباتي بالغور في ثناياه القديمة، بجسده الحامل كل صفاتي، قامته الطويلة، لون بشرته، صوته الذي

يوهم العديد من الأصدقاء فيحدثونه في التلفون معتقدين أنهم يتحدثون إليّ. أعيد الكلام رغم إحساسي بثقله عليه، مدفوعاً بشعور عميق بالذنب لتركنا إياه وعمره ثلاث سنين فقط. قلت:

ـ بابا. اسمع.. قم.. انهض بحالك وأنا معك. أحمل حالي وأترك أمك وأخويك ونعيش معاً إلى أن تجد جادة الصواب.

تكّسر في جلسته وأنا أفيض في رسم سيناريو حياته المقبلة فيما لو اختار درب الظلام، سيفقد عمله وسكنه، سيكون نزيل أمكنة المشردين الوسخة. رأيته ينسرح في جلسته على سريره تحت لوحة لسلفادور دالي أهديتها له عند انتقاله حتى أصبح رأسه محصوراً بين الجدار وفراش السرير. أحسسته يكاد يندمل بالجدار بالفراش بالكلام باللحظة بالأمكنة التي أتخيله فيها وأنا أسرد خيال تفاصيل مأساوية وضعه المحتمل. نهض من رماد هيكله بعناء ليقول بصوت وجلٍ، فاقد اليقين:

ـ ما المطلوب مني؟.

ـ الأمر بسيط. تترك كل شيء، لا خروج في نهاية الأسبوع. ومن العمل إلى مكتبة المدينة. اجعلني صديقك الأوحد فنحن لم نعش معاً.

ـ بابا هذي الشروط صعبة!.

ـ ليس لدي سواها وإلا أحمل حالي وأعود إلى أهلك. ولك ما تشاء وتختار!.

ـ ....

ـ لا تعطني جواباً متسرعاً .. فكر عميقاً وطويلاً!.

وخطوت عبر فسحة المطبخ الضيقة. فتحت الباب المفضي إلى ممر خارجي يطل على حديقة تتوسط الأبنية، اتكأتُ بكوعي على السياج الحديدي مبحراً في الغروب، في العشب، في النسمات الخفيفة، في القصة.. كل القصة.. فأوجعني قلبي. وخلفي في عتمة السرير قطعة من ذاتي تحمل كل سماتي تخوض في عذاب روحها، محاصرةً بين رغباتها المعطلة بالشر وبين تهديد بالنبذ من أشد الناس قرباً. انحدرتُ في خواء اللحظة، ذلك الخواء الذي أضيع فيه كلما أتوجس من فقدان حبيب، وهذا الحبيب ليس أي حبيب.

هبط المساء بشحوبه الحزين. هوت عزيمتي إلى الصفر حال عبوري العتبة ثانيةً. جاوزتُ فسحة المدخل.. مسافة المطبخ. أطللتُ على استلقاءه المخذول على سريره القديم الذي اشترته له أمه حال وصوله. رأيته هيكلاً من رماد، همس بصوتٍ مخذول:

ـ بابا موافق!.

احتشد الصمت بأنفاسنا، خطوتُ نحو الكرسي، جلست بمواجهة طوله الممدد بشكلٍ مائل على السرير، كنتُ أتكسر بأعماقي ومشهد ضعفه وانكساره واستسلامه يوجع كل ذرة مني، من أين لي الثقة بكلامه؟.. من أين وهو منذُ التحاقه بنا يفعل عكس ما يقول. كنتُ أستبطنه بعيني اللتين تخضلتا بغتةً فسارعت إلى مغادرة الكرسي نحو المغسلة القريبة، مسحت وجهي بحفنةِ ماءٍ باردٍ قبل أن أعود إلى جلستي والصمت المربك، الذي جعله يحدق نحو النافذة متحاشياً النظر صوبي، وددتُ لو أغور في أعماقه.. لو أحيطه بنفسي وجسدي، احميه

من الهوة التي يتأرجح على حافتها والتي ستفضي به إلى الخواء والضياع. أوشكتُ على القيام ورمي جسدي نحوه.. أعانقه.. أقبله.. أشمه.. أنهضه.. أحمله عالياً، عالياً. أرميه في فضاء الغرفة وأتلقفه بذراعي مثلما عودته في طفولته.. أضمه بجسدي.. أعيد خلقه من جديد. توازنتُ بمشقة قائلاً:

ـ تسلمني كارت حسابك والرقم.. ونتلازم كل الوقت عدا وقت عملك!.

* * *

أتأرجح على حافة الانهيار. انفصل تماماً عمن حولي. أحصر بصري عبر نوافذ مكتبة Roskilde الزجاجية المطلة على فناء محصورٍ بين أبنيتها يؤدي إلى مدخل الرواد الوحيد. أتموج بنار روحي حال رؤيتي شكلاً يشبهه، وتموت قواي حينما لا يكون هو، ساعة من الجحيم أتلظى بنارها تفوق ساعات ليل خنادق الحرب مع إيران، ليل حرب العصابات، الفقد الفيزيقي لرفاق الخنادق وثوار الجبل الذين جادوا بأرواحهم قبل أن تفيض نحو المجهول تحت ناظري، هذا جحيم مختلف تماما، عذاب لحظاته غير مباركة، جحيم ساعة تقبض الروح التي أمعنت في رمادها وهي تكتشف منذ انتقالي قبل أسبوعين مدى الخراب في روح ولدي، أسبوعان لم أذق فيهما حلاوة النوم. أسبوعان أسهر جواره جالساً على الكرسي محدقاً بغفوته العميقة وقسماته التي تشتد براءتها وهو يغور في مناحي النوم والأحلام مطمئناً لوجودي بعد أن كان في الأيام الأولى يرهف السمع متوتراً لأي حفيف يأتي من الممر الخارجي. وكان ذلك لا يخفي علي. كنت

أحدق في عالمه السري الذي نسجه في غفلة عني عبر حذره وقلقه غير المبرر إطلاقاً في بلدٍ مثل الدنمرك. قلق وخشية تصيب من يخرج على القانون. قلق أشد مرارة من قلقي في العراق وأنا أسهر الليل كله خشيةً من رجال الأمن الذين يختارون وجه الفجر، كنتُ مثله أرهف السمع مستعداً للهروب المطلق، وقتها كنتُ لا أدري إلى أين، هلعاً من هول التعذيب الذي ذقته مراراً في تلك الأمكنة المعتمة الرطبة الغامضة التي تصيب نزيلها باليأس المشرف على حافة الجنون، أسهر مغموراً بضوء مخبوء تحت إناء ماء زجاجي، أسطواني الشكل تترسب في قعره كتلة دم وتنتشر في أنحائه قطرات حمراء كأنها نزفت لتوها من جسدٍ مجروح.. سألته بعد ليلتين:

ـ بابا.. من أين جلبت هذا الضوء؟

ـ اشتريته.. ومن دونه لا أستطيع النوم!.

لم أبح له بهول الأخيلة التي تعيشني فيها بقع الدم المنثورة بأنحاء الماء والذي يذكرني بإصابة "مظهر عبد طه" الجندي الجالس جواري على قارب وسط هور "الحويزة" بشظايا قذيفة أسقطته من الزورق فبقّع دمه الماء المضطرب في تشكيلٍ يشبه هذا، أسهر جواره مقلباً وضعنا الجديد، واضطراره إلى مصاحبتي طوال اليوم، كان لابد أن يحكي تفاصيل عابرة سريعة، تفاصيل هو لا يدرك ما تخلفه في سهري تحت نزيف الماء وكأنني في حضرة مذبحة لا تنتهي، أتلظى بليلي الطويل رائياً هذه القطعة الحية الفتية الطالعة من جسدي في طريقها إلى عالم الجريمة والضياع، يقلبني جمر حكاياته عن ضربه لكل من

ينظر إليه ويطيل التحديق، عن مجد هروبه وعدم وقوعه بأيدي الشرطة، عن تفاصيل الكيفية التي تسرق بها العصابات.. كيفية كسر قفل باب مثلاً. كان يؤكد بأنه لم يكن معهم، لكنه يمثل أمامي العملية في مسرح الغرفة، .. عن أمكنة بيع المخدرات وأنواعها، أتجمد رعباً مستعيداً قصة ملابسه الممزقة بأسنان كلبٍ أدعى أنه هاجمه وهو في حديقة المدينة بحفل كل ثلاثاء.. وذلك مستحيل فبإشارة من صاحب الكلب يكف. ثمة أسرار خلف كل الحكايات، فالكلب الذي مزق بنطاله وقمصلته لا بد أن يكون كلب حراسة. ليس أمامي خيار سوى الإنصات وتصنع البلاهة والتصديق كي أكسب استمرارية هذا الوصال الشاذ الغريب. أسبوعان من السهد والظنون والجلوس العاجز تحت فيض الدم العائم خلف زجاج الأسطوانة، أسبوعان في خواء حضوري وسط عالمه الراسخ بالشر، والذي بناه بطريقة لا أستطيع فهمها مطلقاً، فهو يلبس أجمل وأغلى الملابس التي لا نستطيع رغم عملنا أن نوفرها له. كان يدعي شرائها بأسعار زهيدة من الأجانب الذين احترفوا السرقة.. لم تنفعه قصص جوعنا أنا وأمه في جبال شمال العراق ومعسكرات اللجوء في تركيا وإيران حيث اضطررنا إلى النوم على التراب دون غطاء.. ونكون سعداء وقتها عندما نحصل على قطعة خبزٍ وحبات زيتون نقاوم بها جسامة يومنا الصعب. تولدّ لدي شعور بتقادم الأيام أنه يزدري قصتنا.. كل قصتنا.. من المؤكد أنه يعتبرنا معتوهين، غبيين، متعلقين بمثلٍ لا تحقق واقعي لها، كيف لا يستخف وهو ما أن انتقل إلى شقته حتى جلبوا له تلفزيون وفيديو ومبلغ من المال مكنه من شراء أثاثٍ غالٍ. أراه

في غمرة نثار الدم السابح بأسطوانة الماء الساكن يغفو بسكينة، نفس سكينة غفوته بحضني قبل ستة عشر عاماً. يغفو ملء جفنيه تاركاً خفقي الساهر الحائر، المبحر بذهول في عمق سفره الغامض في عالم النوم والأحلام.. أسهر معطوب الروح. أسبوعان في غمرة الماء المذبوح النازف، أسبوعان في صمت ليلي الطويل النازف، أسبوعان رسخّتْ في نفسي خواء المصاحبة اليومية المفروضة في حوار، الطرف الأخر فيه لا حول له ولا قوة حيث لا يستطيع دفع أجرة سكنه وقوت يومه، أسهر إلى أن تنتشلني زقزقة عصافير الفجر، اسهر معانقاً تباشير فجر النافذة الغاسل نزيف ماء الظلمة المبقعة ببقايا أجساد قتلى المحن والمواقف والعصور حالماً به يستقيم عائداً إلى حضني والمعنى بحيث أزوره في عطلة الأسبوع في سكنه وليس في السجن.

أنهض من جلستي الساهرة جوار سريره. أستقيم بعناء مسلولاً بشجني، بسيل حبي المكبوت ورغبتي في عناقه، في حضنه وأذابته بجسدي، في الغور فيه. أخطو مترنحاً صوب الباب المفضي إلى الفجر، يغمرني رذاذ الفضة المتدفق من غور السماء. أهبط درجات السلم الحديدي إلى الحديقة وضجيج العصافير. أتوجه شطر الحقول المجاورة والغابة. أنصت إلى حفيف خطوي، أنين الأعشاب تحت قدميّ، عويل الريح، نبضي الضاج في عمقها وبين سيقان أشجارها الشاهقة المحتشدة ببقايا العتمة :

ـ لم يحدث لنا هذا؟

- لِمَ أختار درب الشر؟

- أثمة لعنة حلّتْ علينا ورثناها من الأسلاف؟!.

أتوغل في غابة نفسي، في مناحيها البعيدة، في لون الفجر والأشجار الباسقة، في العشب والدغل والألم باحثاً عن قشة جواب، أية قشة تفسر لي وضعي البشري البائس، محروماً من فراش بهجتي جوار رفيقة عمري، من لحظة أيقاظ طفليّ الجميلين، من طقوس إعدادي وجبة الفطور، ووضع علب طعام غذائهم في حقبتيهما، وقبلة الصباح عند باب المدرسة، محروماً وكأنني في عالمٍ أخر، عالم ناءٍ، عالم لا يعرف الأمان والسلام، عالم متوتر وفي كل يوم أكتشف حبوب مخدرة وأوراق لف الحشيش مخبوءة بأدراج المطبخ وتحت السرير، في الحقائب والوسائد، سكاكين وهراوات وأقنعة سوداء لا تُظهر سوى العينين تستعمل عند السطو.

أهيم في فجر الغابة.. فجر القصة. أتهدج مختنقاً بشجني، وهناك في تيه الغابة الكبيرة تمنيتُ لو أنني لم أكن هنا أبدا!. لم أغادر مكاني الحميم، ديوانيتي الجنوبية.. حيث كنتُ أهرع وقت اشتداد محنة روحي إلى الفرات.

- أين مني شبابيك الذهب التي بمعانقة أصابعي ذهب جسدها كنتُ اعثر على الطمأنينة وقت اشتداد المحن.

.. محنتي فريدة يا سماء ..

محنتي عارية يا فضة..

محنتي في جسدي يا أشجار.. محنتي محنة.

كدتُ أختنق، فانفجرتُ في صراخٍ أجوف.. صراخ مجنون مزق سكون الغابة والفجر.. صرختُ.. صرختُ بكل ما بيَّ من طاقة. صرختُ راكضاً نحو أقرب شجرة، انهلتُ نطحاً ولكماً على ساقها المتين الأخرس حتى أدميتُ وجهي وظاهر كفي. استكنت منهكاً.. تأملتُ خواء لحظتي .

ـ يا حبيبي.. مدد.. يا حاضر الشّدات.. مدد.. مدد يا داحي باب خيبر.. مدد.. ودفنتُ وجهي بعشب الغابة الندي الذي أختلط بفيضي. تحول نحيبي إلى بكاءٍ خافتٍ مهضوم. ومن فيض دمعي رأيته يستقيم منبثقاً من أنفاسي.. من ساق الشجرة الملون بنزفي.. من غور نفسي.. من طفولتي.. جاءني بلحيته البيضاء الكريمة. أعتنق جسدي البائس. التففتُ به وغبت في عشب لحيته الفضي. أردت أن أبصره بحالي، أردت أن أبوح له بكل شيء، شجني، بؤسي، ألمي، خواء لحظتي وضياعها، صّبرني.. صّبرني بهزة من رأسه المقدسة.. ونفث في وجهي نَفَسَهُ الحميم.. يا حبيبي يا بن أبي طالب.. يا حبيبي.. يا شفيعي في الغربة.. أشار بذراعه المغطاة برداء أبيض صوب شقة ولدي.

استقبلني مذعوراً وهو يتلمس قسماتي النازفة ويردد لاهثاً:

ـ من الذي فعل بك هذا يا بابا.. من؟.. سأمزقه!.

نطقت بصوتٍ واهن:

ـ أنتَ!.

ـ بابا.. بابا.. يا بابا!.

اعتنقته بحنان فذهب الكلام.

أتأرجح في انتظاري ورقاص ساعة المكتبة الجدارية يشير إلى السادسة والنصف. لو يأتي، لو يأتي رددت مع نفسي متمنياً عودته وعناقه بأي شكلٍ يكون، لحظة فيزيقية مجردة يستدعي فيها الجسد فرعه. أحملق في الساعة والنافذة، في حركة أجساد البشر التي بدأت بمغادرة المكتبة مع دنو ساعة الإغلاق، أحملق في ذاتي البائسة التي بدأت تتدلى في وهن عجزها اليومي. أشتعل وأنطفئ في لحظة واحدة والدقائق تكبس عليّ معريةً ضعفي وهشاشتي. لو يأتي، لو يأتي في اللحظات الأخيرة، ولا يعيشني هواجس ليلة الخميس الفائت التي اختفى بها وتركني وحيداً في شقته، ساهراً محتدماً بين الغضب والخذلان. وكان لا يدري أين قضى ليلته تلك؟. لو يأتي يا رب الكون والمعرفة والخلق، لو يأتي.. لم يبق سوى خمس دقائق. تلفتُ حوالي فوجدتني الوحيد بين أدراج الكتب والكمبيوترات والموظفات المتململات من أخر لحظات روتين يومهنَّ. بركت في الخذلان، في ذل لحظتي الخاوية. تعطلتُ غير قادرٍ على النهوض مثل حالي تماماً في عتمة الزنزانة وفجر ملاجئ الحرب وبيت طفولتي التي كنتُ فيها مذنباً كل الوقت. تعطلتُ منهاراً في بهمة السؤال الذي حيرني منذُ الطفولة وإلى لحظتي المشرفة على الشيخوخة:

ـ لِمَ يحدث لي كل هذا؟!.

أشرفتُ على الخمود في الدقائق الثلاث الأخيرة، وأنهضتُ جسدي بمشقةٍ ملاحقاً بعيون الموظفات المستعجلات خروجي. خطوت بجسدي الخائر نحو الباب المفضي إلى فناء مسائي الحزين.. فناء طفولتي حينما أنفرد بنفسي تحت النجوم في ساحة

بيت أهلي القديم، أخطو مخدراً نحو باب المكتبة تحت مرأى الحارس قبالة الباب لمنع من يبغي الدخول بعد السابعة. تنفتح باب الخروج آلياً، أجتازها وكأنني أعبر نحو حتفي. صرت في الفناء. تذكرتُ صديقي الشاعر وحزنه الدفين وهو ينشد في باحة مسجد وسط الديوانية قبل ثلاثين عاماً:

أموتن سكته گلبي كتاب ...

واليقره القلب يعمه ! *

وبغتة ظهر من خلف حافة الجدار فصرختُ به ناسياً كل تفاصيل انتظاري:

- وين كنت يا بابا.. وين؟! .

كان يترنح، بالكاد يستطيع الكلام، ويحدق إلي بعينين مستنجدتين يزيد من براءتهما الخدر وشّدة ولعه بيّ.

لم يستطع سوى أفراد ذراعيه مثل جناحي طائر، اعتنقته بشغف شاماً من جسده الفتي الهش خليطاً من روائح الدخان والخمر والحشيش. كسرني عناقه المخذول في صمت فناء المكتبة الخاوي.

انحدرنا في صمت الشارع، متلاصقين حبيبين ضائعين مثل طفلين يتيمين.

تموز - يوليو - 2000 - الدنمرك

*

* من قصيدة للشاعر العراقي علي الشباني

4- قالت لي

عند الفجر وقع بصري عليها مقبلةً من عمق الوادي حيث قرية "دولكان". سمراء ناعمة التقاطيع، تبتسم لكل مار من رفاقها، وتتمازح معهم بلهجة الفرات التي عرفتها فورا، وكأنني في مدينتي. لما رأتني قدمت نحوي عرفت نفسها:

ـ أسمي رجاء!

وسألتني عن أسمي.

عندما أخبرتها أني قادم من الداخل تواً أبدت اهتماماً غير عادي، أرادتْ الخوض في التفاصيل، لكنّي اعتذرت، كنت متعباً لا أبغي سوى النوم والنوم إذ قطعت مسافةً طويلةً لا يتصورها إلا من عاش ثائراً في الجبل.. سرنا بمصاحبة دليل من حافة "كفري" قرب بغداد، عبر تلال كرميان، وسلسلة جبال قرة داغ، لنهبط إلى سهل شهرزور قاصدين شارباجير، ثم عبرنا جبل سورين في صعود أستمر طوال الليل لننزل إلى منطقة الأمان التي كانت وقتها "الأرضي الإيرانية" ثم سرنا يومين إلى قرية دولكان ومنها تسلقنا مرتفعاً إلى بيت مزارع حيث مقر القاعدة المؤقت كان ذلك في شهر أيلول 1982.

للتجربة الأولى طعم مختلف، من جبهة الحرب والخوف من الكلام.. من عيون رجال الأمن المسعورين ونقاط التفتيش عند مداخل المدن وفي داخلها إلى فضاء حرّ وثوار مسلحين يحلمون بتطور حركتهم إلى ثورة شعبية تزحف لتحرر المدن الواحدة بعد الأخرى بما يشبه زحف كاسترو وجيفارا في كوبا. من قاع الخوف المعتم إلى سماء زرقاء وطيران في الأعالي. وقتها كنت منتشياً بالخلاص من كابوس الموت في الجبهة، من الاعتقال والموت في الأقبية حتى أنني نسيت في الفترة الأولى بأن لي زوجة وابناً لم يبلغ شهره السابع تركتهما خلفي في مدينتي. لم أصحُ من الخدر ذاك إلا بعد أشهر طوال، وخلال هذه الفترة توطدت علاقتي بـ "رجاء" كنا نذهب معاً كل صباح عقب وجبة الفطور إلى منطقة تبعد أكثر من كيلومترين لتقطيع الحطب، نخوض بشؤون العراق والناس في الداخل إلى أن بلغنا الغور بالشؤون الحميمة. ورويداً.. رويداً بدأتْ تفتح قلبها المثقل

بالهموم، هموم صغيرة غير مفهومة أبدا للثوري المؤدلج. تلك الهموم كانت لا تستطيع البوح بها إلى أحدٍ من رفاقها، لكنها بعد أيام من الحوارات استشفت بفطنة المسافة القائمة بيني وبين الأيدولوجيا فسألتني بغتة:

ـ أنت مو بالحزب؟!.

رددت ببساطة:

ـ لا لست بالتنظيم!.

انفجرت بضحكة عاصفة وقالت:

ـ وملتحق وتتحمل كل هذا العذاب!.

وقتها لم أشعر بكلامها العميق بل وجدتُ فيه سذاجة، لكن سوف أتذكره لاحقا عندما حكَّتني التجربة حكاً وأرتني الويل، لا بمصاعبها الخارجية فحسب بل بمعاناة العيش مع مجموعة من البشر وكأنك مسجون رغم حريتك الظاهرية. كان ذلك في مرحلة لاحقة كانت فيها "رجاء" في عالم أخر.

أجبتها:

ـ أفضل ما أموت بالجبهة لو بالسجن!.

صمتتْ هنيهة وحدقت بعيداً عبر الوادي إلى قمة عالية منحوت في أعلاها ما يشبه ثدي امرأة كبير كان يثير لدى المقاتلين أخيلة وأماني بين دفء صدر الأم وصدر الحبيبة والزوجة المتروكة في المدن البعيدة. التفتتْ إلي وقالت:

ـ يعني لو ما هذا الوضع ما التحقت!.

ـ نعم.. لو تركوني وشأني!.

حمل كلٍ منا قطعةً من ساقِ شجرة بلوط ذبحتها بمنشاري، وخطونا نحو القاعدة.. صمتتْ مسافة طويلة، لم تفتح فمها المرح كعادتها كل يوم أثناء المسير. قطعنا وادٍ صغير يقطع دربنا، فتوقفنا لنسترح قليلاً. جلسنا متقابلين على حافة سفحٍ صغيرٍ نعبُّ أنفاساً عميقةً فأمامنا مرتفع حاد. توقعتُ أنها ستقول شيئا إذ بدتْ ممعنة في التفكير، فتشاغلتُ بالنظرِ نحو غيوم السماء الدانية السريعة المارقة جوارنا في الوادي، إلى أن قالت:

ـ يعني أنت التحقت لسبب أخلاقي!.

وكأنها وقعت على ما عجزتُ التعبير عنه، هتفت:

ـ بالضبط من أجل كرامتي!.

بدأنا نقضي ردحاً من النهار نتجاذب أطراف الحديث مقلبين شؤون الدنيا. وكنت أخوض بما يعني النفس والتجربة دون مكاشفةٍ فلا هي عرفتْ عني شيئا يخص وضعي الاجتماعي ولا أنا. لكنها شَكَتْ من ضيق الدنيا، وأفضت لي بعذاب الأنثى حينما تضطرُ إلى العيش وسط حشدٍ من الرجال حتى لو كانوا رفاقاً. لم تشكُ بشكلٍ مباشر عمن كان يضايقها مثلا، بل هي أعمق من ذلك بكثير. كانت شجاعة تتصرف دون أن تدير بالاً لما كان يهمس حولها.. تتصرف وكأنها في بيتها كابتةً تلك الآلام الصغيرة التي تأتي من نظرات مقاتلٍ محروم.. نظرات تغتصب، تفترس، من همهمة، من كلام يضايق، من القيل والقال المستشري في بيئة الثوار المعزولة. حكت عن رفاقٍ أرادوا الزواج منها.. لكنها لم تكن تميل لأحدٍ ممن تقدم لها.. قالت

غاضبة بصوت قوي:

ـ لا أحد يريد فهم ماذا يعني أن المرأة لا تريد؟!..

وسردت ضاحكة تكرار المحاولات..علقتْ أخيراً:

ـ خليها سكته.. تره عدنه رفاق حمير!.

هدرنا بضحكٍ عاصفٍ جعل الرفاق المتجمعين قرب تنور الخبز وقاعة المنام يشخصون صوبنا بعيونٍ متسائلة.

كانت مثل تلك العلاقات الحميمة تثير غيرة وحسد الرفاق الذي لا يستطيعون نسج علاقة مع امرأة، فكانوا يسمعونني بين الحين والحين كلاما ملغزا أعرف القصد منه، كنت لا أرد ولا أبالي منتظرا شجاعة المتكلم كي يفصح بوضوح.

وتطورت علاقتنا الشفافة فصرت أريها ما أكتب من قصص.. وفي نفس الموقع كتبت قصة "جرح الحمامة"* عن بنت المزارع الكردي صاحب البيت "سورين" الفاتنة. قرأتها وماتت من الضحك وسألتني:

ـ أحقا تفكرون بهذه الصبية الصغيرة وتحكون عنها فيما بينكم بهذه الطريقة؟!.

ـ الحوار ليس خلقاً مني!.

فسألت بلهفة:

ـ زين مِنْ هذا المسئول الذي رصدته يقلد صوتها وخطب

** نص القصة التي كتبها السارد وقت التجربة

فيكم كي تبتعدوا عن المكان؟!.

ـ بهاء الدين نوري *

وقتها كان مسئول الموقع.. وَعَبَرَ الستين من عمره. هوت في ضحكة جديدة طويلة هذه المرة فعلقتُ:

ـ رجاء أسمعي.. الجمال مصيبة!.

وقتها نمَّ لي أحدهم نميمة جميلة عميقة تخصها.. فالكثير من النّم مفيد. نمَّ عما جهرت به ليلة رأس السنة الفائت في الحفل الذي أقاموه في مقر "نوزنكـ" وكيف قام كل رفيق وتمنى أمنية.. والكل طبعا تمنى الانتصار ونجاح الثورة المسلحة والزحف إلى المدن إلا هي، وصَمَتَ وعلى شفتيه ظل بسمة.

قلت أستحثه الكلام:

ـ ماذا تمنت؟!.

رمقني وتلفظ جملته بإعجاب:

ـ قالت أتمنى أن أتزوج!.

كبرتْ بعيني. لزمت الصمت متخيلا مشهدها وهي تقف وخلفها جدار من الحجر والطين.. وعيون المقاتلين تشخص نحو قوامها الناحل وظلها المتشبح على أجسادهم بفعل ضوء

** بهاء الدين نوري قائد شيوعي عراقي قاد الحزب عقب إعدام سكرتيره الأول "فهد" عام 1949، شارك بحركة الكفاح المسلح 1980-1988 شمال العراق وأنشق مكونا حزبا لا زال حيا 2016 ويعيش في السليمانية.

الفوانيس المرتجفة.. رأيتها تشمل الجميع بعينيها السوداوين.. تأخذ نفساً عميقا. تجّمعْ نفسها وتعلن أمنيتها الصغيرة المستحيلة التي لم تستطع نيلها في عمرها الخاطف. واصلتُ صمتي متأملاً وجه المقاتل الذي كان ينتظر تعليقا مني، ولما يأس أردف:

ـ شُجاعة.. نطقتها في قاعة فيها أكثر من سبعين رفيق!.

شجاعة ومقدامة حقا إذ كانت حينما تلاحظ ارتباكي وضيقي من عيون المقاتلين الملاحقة خطواتنا ونحن نبتعد قليلا عن الجمع منهمكين بأحاديث عميقة صريحة تجد أن من المستحيل البوح بها لغيري كما أخبرتني مرات عدة.. إذ ستفهم بالمقلوب كما أمنيتها بالزواج في عيد رأس السنة الفائتة.. ففي اليوم التالي وجدت نفسها محاصرة بالعشرات من الرفاق الذين يبغون الزواج منها.. كانت تقول بوضوح:

ـ لا تشغل بالك بهم!. أعرف كيف يفكرون لكن المهم أنا وأنت كيف نفكر!. بعضٌ ممن حاصرني ولحّ كي أتزوجه معنا هنا.. أقول ذلك كي تكون الصورة واضحة أمامك!.

أحاديثنا تشعبت.. من الطفولة إلى الحب والمرأة والأدب، أما المشترك بيننا فهو ذلك الحنين الجارف للأمكنة التي تركناها خلفنا في مدننا الحميمة المنتهكة. كانت تبات مع عائلة كردية في قرية "دولكان" تنزل إليها بعد وجبة العشاء، لتبكر في الصباح صاعدة إلى مقر القاعدة.

في ظهيرة خريفية مشمسة، كنا نجلس ثلاثاً.. ثلاثاً حول صحون الغداء.. كنا في ذلك اليوم ثلاثة رجاء، والقاص "يوسف أبو الفوز" صديقها وزميلها في الجامعة كما عرفت

لاحقا وأنا، نضج بالكلام والضحك والتعليق حينما ناداني بصوت عالٍ رفيق يدعى "أبو بشرى" (سيتسلسل بعد ثلاثة أعوام إلى جنوب العراق ويقبض عليه وهو متخفٍ ويقتل تحت التعذيب في أقبيتهم) لاحقاً ذو وجه أسمر قاحل يميل إلى لون الحديد الصدئ قائلا بصوت جهوري أسمع الجميع:

ـ مبروك رفيق وصلت رسالة حلوة من زوجتك!.

هببتُ فرحاً لا تسعني الدنيا ونهبت من كفه الورقة المفتوحة. كان خطها. خبأتها في جيب سروالي وعدت إلى حلقة الأكل مسروراً، بيّ غبطةٌ لا مثيل لها، فلم أنتبه مثلا لخبث الإعلان، ولا لقراءة المسئول لرسالة شخصية، ولا لردّ فعل رجاء أو يوسف أبو الفوز.. كنتُ أستعجل الخلوة مع حروف رسالتها الحميمة.

قبيل نزولها إلى القرية تمشينا بممرٍ مذهبٍ بورق الخريف، وعلى حافة الوادي الصغير المحاذي لذلك الممر الهابط المعزول.. كانت صامتةً على غير عادتها، حاضرة غائبة، ممعنة في نفسها على وقع تكّسر أوراق الخريف اليابسة تحت أقدامنا المتباطئة.

ثمة ما يثقل المشهد.. والعلاقة

وقتها لم أفهم شيئاً!.

كنتً أنتظر مفتتح الكلام.. الذي سرعان ما أتى. توقفت بغتة فتوقفت مثل جندي تلقى أمراً. رفعت رأسها ورمقتني بعينين يختلط فيهما العتاب بالمحبة وقالت:

ـ أبو الطيب أنت متزوج!.

أكون كاذباً إذا قلت أن السؤال لم يربكني.. لا، ارتبكت جداً.. لا أدري لم ارتبكت؟!..

هل خفت وقتها من ضياع تلك العلاقة الشفافة في ذلك الواقع الصلب الصعب؟!.

هل كان ثمة شعور دفين بداخلي يقول إذا عرفت سيصيبها الحزن!.

هل..... وهل؟!.

دون تردد أخبرتها بقصتي كلها.. قصة حبي المجنون وكفاحنا من أجل الزواج. كيف واجهنا عائلتينا؟!. وكل موروث القيم العراقية التي تعيب الحب وتعتبره سبة وجريمة.. حتى فرضنا الزواج فرضا ثم حدثتها عن أبننا الصغير "كفاح" كان وقتها عمره ستة أشهر فقط ـ وليلة القصف الرهيبة التي قضيتها داخل ملجأ شقي ضيق في هجوم شرق البصرة الشهير تموز 1982.. هروبي في أول إجازة ثم فلاحي بالوصول إلى الجبل.. كانت تنصت محدقة بعيني وفي عينيها تعاطف وشجن، قلت لها ظاناً أن قولي يخفف عليها:

ـ رجاء لا أستطيع أن أخبرك بكل شيء عن حياتي كما لم أطلب منك البوح بتفاصيل قصتك لي.. أليس كذلك؟!. لكن هذا "أبو بشرى" وضعني بهذا الموقف الذي وحدك يا رجاء من له الحق بمعرفة قصتي الحقيقية!.

توقفتْ واستدارتْ. صارتْ بمواجهتي. خلفها يستقيم السفح

المقابل مغطىً بالأشجار المذهبة:

ـ ألا تشتاق لها.. لأبنك؟!.

وقتها كنت لم أزل سكران بالخلاص من الحرب والأقبية، ولم تمض بيّ الأشواق بعد، لكن بعد أشهر من الدوران بين القرى واشتداد المشاق وَتَمكنْ الوحشة مني، سأتأرجح على حافة الجنون فأسعى للتسلل إلى مدينتي.. إليها لأذوق الجحيم مفصلاً.. ثم أنجح في جلبها معي إلى الجبل:

أجبت وقتها:

ـ معي هما في كل لحظة!.

لم تفعل تلك المكاشفة إلا تعميق صداقتنا. فخابَ ظنّ صاحبنا الذي عرفتُ منها لاحقا أنه كانَ هوَ الرفيق الذي ألحَّ عليها بالزواج.

وقتها لم أخبر خبايا نفوس المقاتلين وما يدور من صراعات خفية سوف أتلظى بجحيمها لاحقاً لما عشت تجربة الالتحاق الثاني مع حبيبة عمري حتى حملة الأنفال عقب وقف الحرب مع إيران.

تلك الأيام تبدو الآن بعد أكثر من ثلاثة وعشرين عاما مثل حلم جميل مكتظ بروائح الجبل، الليالي المقمرة المثلجة البيضاء، نقطة الحراسة فوق سطح جامع أو في زاوية بيت، الصمت وإرهاف السمع مخافة هجوم مباغت. كنت أسوء مقاتل في الدنيا، أقضي نوبة حراستي في أحلام يقظة ليس لها أول ولا أخر حتى أنني كنت أنسى فأظل بالنقطة ساعتين بدل ساعة

نوبتي. كنت أشم عبق أرواح المقاتلين الحالمين بفجر عراق جديد لا ظلم فيه.. أشم روائح الوادي، بقايا دخان نار رعاة، دخان القرى والسرايا المقاتلة الأخرى. كنت أعيش أحلامي محدقا بشرود في الضوء الخافت المتسلل من كوى نوافذ بيوت فلاحي القرى الكردية الفقيرة المنسية في تلك الأصقاع البعيدة التي لم تصلها الكهرباء ولا الطرق.. أحدقُ حالماً بكتابة المزيد من القصص عن عذابهم الدفين وشدة تحملهم لعناء الأشواق والمخاطر.

في الطريق الطويل من مقر "دولكان" إلى قرية "حاج مامند" في "شارباجير" كانت "رجاء" معنا. أيام من السير بين الجبال في برد تشرين الثاني القارص. كنا نمشي أثنين.. أثنين بمسافة فاصلة قدرها عشرين متراً لتقليل الخسائر في حالة هجوم مباغت. وكنت ورجاء نسير معاً بين قرية وأخرى ويوم وأخر. حكت لي الكثير عن أحلامها الصغيرة. وكانت تشعر حقاً أن الزمن يسرقها.. فهي بلغت الثلاثين ذلك العام ولديها رغبة في العيش بحضن أسرة. لم تقل ذلك مباشرة بل أدركتُ كلامها ولمستُ عذابها الدفين في تفاصيل الأحاديث المتشعبة ونحن نسير على طرق جبلية وعرة حيث نصبح أحيانا فوق قمة أعلى من الغيوم.

كنتُ أفكر في الله الشاهق في السماء، هل يرى عذاب أرواحنا من الأعالي ونحن نؤوب عند المساء إلى بناية جامعٍ قديمٍ رطب الجدران، نبحثُ عن حطبٍ ندفئ فيه ليلنا الثلجي ونرتب الحراسات كي نضمن سلامتنا على أمل السير في الصباح الباكر نحو عمق العراق!.

هل كان يرثى لحالنا؟!.

يرثى أحلامنا العريضة المستحيلة؟!.

بتُ واثقا من ذلك بعد كل تلك الأعوام.. وذلك النظام الذي قاتلناه بقي، وصرنا متناثرين بعضنا دفناهم بأيدينا تحت ظلال شجرة.. تحت صخرة.. في حفرة على عجل، وبعضنا ضاع بلا قبر مثل صديقتي رجاء وأخي كفاح وأولاد عمتي صلاح وعلي ومعهم الآلاف من أبناء تربتي، وبعضنا في المنفى يعاني من خريف العمر والوحدة مثل حالي..

..... ولم يسقط إلا بالاحتلال!.

كان الله في سمائه البعيدة لا يرثى لذواتنا التي أسجل الآن نتفاً مما كانت تحلم به وتفعله في تلك الأيام فحسب، بل يبكي على مصائرنا نادماً على طردنا من جنته.. على تركنا في الحيرة بين الخير والشر في هذه الأرض.

في تلك المفرزة الطويلة الكثيرة العدد أتذكر قرية عجيبة، ففي العادة تشاد القرى على السفح، لكن تلك القرية أقيمت على مرتفع في قعر وادٍ عميق.. وحولها تشهق أربعة قمم لجبالٍ مفردةٍ توزعت على جهات الأرض. وعلى قمة ذلك المرتفع أشيد جامعها الفقير. في حراسات تلك الليلة كانت "رجاء" قبلي في النوبة. كنتُ كعادتي أنامُ مثل ميتٍ أينما كنت ولا أبالي بالقادم، وكان ذلك يغيظ رفاقي الجنود في الجبهات، وأغاظ رفاقي الثوار في الجبل أيضاً. استيقظتُ على ربتِ أصابعها على كتفي. فتحتُ عيني. طالعني وجهها الباسم. همستْ بعذوبةٍ:

- قم وقت نوبتك!.

كنتُ أحلم بعالمٍ أخر غير الذي أنا فيه. كنت في بيت أهلي في الحي العصري، أمارس حياتي بسلام وأمي توشك أن توقظني كي أجلب الخبز كل فجر من فرن الحاج "جاسم" ذي الوجه النوراني وكأنه وليّ من أولياء الله. ظللت أرى سلام ملامحه وعينيه في رسومات المسيح، في كل الكنائس التي زرتها هنا في أوربا. كنت غائراً في تلك المعاني البريئة عندما أزحت البطانية القديمة، وأنهضتُ جذعي الأعلى. فركت عينيَّ، ملاحقاً قامتها المدبرة وهي تنسل إلى عتمة باب الجامع. تلفتُ، فرأيت يوسف أبو الفوز القاص ساهراً يقرفص جوار المدفأة يلقمها بالحطب متلفعاً بقمصلته العسكرية الثقيلة ويخطُ شيئاً بدفتر صغير بين يديه.

رغبتُ بالعودة إلى النوم وسلام الحلم، لكنني نفضتُ رأسي قامعاً تلك الرغبة، وأنهضت جسدي بعناء. شددتُ صفَ الرصاصِ. حملتُ بندقيتي، وخطوتُ بحذرٍ مخترقاً حشدَ المقاتلين الغارقين في النوم والأحلام والأماني والعذاب. قبلَ أن أتجاوز العتبة إلى رواقِ الجامعِ التفتُ صوب أجساد رفاقي المبعثرة حول المدفأة ولصق الجدران الرطبة، صوب يوسف أبو الفوز المنهمك في محاولته مسك تفاصيل اليوم الذي سنجده في كتاب سيصدره بعد أكثر من عشرين عاماً عن يوميات الأنصار:

- ربي أرفق بحال صحبتي!.

هتفتُ بصمتٍ في اللحظةِ التي دلفتُ فيها خارجاً إلى عتمةِ

الجبلِ و"رجاء". وجدتها ترتجف رغم المعطف العسكري الثقيل.. همستْ بخفوت شديد وهي تناولني البندقية:

ـ أكاد أتجمد من البرد!

أمسكتُ جسد البندقية فلامستُ أصابعها السمراء النحيفة الصغيرة كأنها أصابع طفلة. كانت قطعة من الثلج. تنكبتُ البندقية وقلت لها ضاحكاً:

ـ سأدفئكِ بثوانٍ!.

وحضنتُ أصابعها بين كفيَّ وفركتهما بشدة، حتى كادت أن تحترق أيدينا، كما كنا نفعل في المدرسةِ، حينما كنا أطفالاً وقت الشتاء والصف لا مدفأة فيه. أنسلتْ ضاحكةً بمرحٍ صوبَ باب الجامع. وذاك أخر يوم جعلنا نقترب من بعضٍ إلى حدود تحرزها النفس في أعماقها وتبقى حتى فنائها.

ما تبقى من القصة أكثر مرارة ووحشةً. وزعنا على سرايا تدور في قسمي منطقة "شارباجير" المحيطة بمدينة السليمانية من الشمال. وصرت أدور مع سرية يتسلل قسم منها بين الحين والحين إلى المدينة لنصب كمائن وجلب أسرى من رجال الأمن الأكراد طبعا. كنت أتأمل في ذلك الشتاء الثلجي الطويل الشأن البشري.. وضعي.. وضع رفاقي بحالاتهم، وكانت أشواقي تستعر يوما بعد يوم لحبيبتي وأبني.. صرت أحلم كل ليلة بها حتى أني وجدت نفسي في بعض الليالي أزحف معانقاً الرفيق النائم جواري.. يوقظني فأشعر بالخجل ولا أعرف كيف أفسر الأمر لحظتها.. ومن حسن حظي أن من كان ينام إلى جانبي ممن كان يعرفني بعمق، ولو كان من فتية الأكراد المقاتلين

لوقعت بمأزقٍ من الجائز أن يغير مسار تجربتي. صار حلم رؤيتها خلاصة عمري.. وصار خيالها يعاشرني من لحظة نهوضي في الصباح.. وصورتها في حلم كل ليلة تتجلى وتعذب لحظتي طول المسافة بين القرى في النهار وحتى لحظة النوم في جامع فقير ما في المساء. إذ تأتلق لحظة سقوطي في النوم، فتطعمني من لذة عطرها وصوتها وجسدها ما يجعلني في الصباح شبه ممسوس، أسرحُ شارداً عما يجري حولي، فبدأ الوجد يظهر عليَّ جلياً بنسيان بندقيتي حينا، وصف الرصاص حينا، وحقيبتي حينا. كنتُ قد عزمت مع نفسي التسلل إلى مدينتي وليكن ما يكن.. فدونها الجحيم. من أجل ذلك كتبتُ العديد من الرسائل كي يسمحوا لي بالنزول. فبعثوا في طلبي.. وفيما كانت السرية على مقربة من "حاج مامند" أشار لي أمر السرية بالبقاء في المقر أياماً معدودة. فحللتُ في ذلك البيت العالي، المطل على بيوت القرية المغطاة بالثلج، والمتناثرة حتى حافة الوادي. كان مكتظاً بغرفه الخمس المفتوحة على رواق يطل على الوادي. رواق طويل يعج بالمقاتلين والقادة الذين يجوبون مساحته رواحاً ومجيئاً طوال الوقت.

كنت أحضن المدفأة في غرفة تخص رفاقِ تنظيمات الداخل.

عبر النافذة المفتوحة يظهر الوادي عميقاً ضيقاً معتماً، والثلج ينهمر نتفاً مدورة في مهرجان من البياض صار مكروهاً لدى المقاتلين، إذ يعني ذلك مشاق في السير، وتجفيف الملابس، وسهولة كشف الطائرات المروحية حيث يصير المقاتل مثل نقطة سوداء بصحن أبيض.

التفتُ صوب الباب الذي فُتِحَ بجلبةٍ. وجدتُ نفسي أقفز رغم تعبي. كانت "رجاء" تبتسم وتصرخ باسمي مفتوحة الذراعين. تعانقنا وأخذتني إلى ذلك الرواق المكتظ بالمقاتلين.

شوق غامض يشدنا

عذاب غير مفهوم

نحس به وحدنا!.

هل كنا نشترك بمصيرٍ؟!.

هذا ما بتُ واثقاً منه، إذ نجوت بمحض صدفٍ!.

قالت لي، وفي وجهها، ذلك الوميض الخاص، بفرح من وجد كوة مضيئة في عالمٍ دامس:

ـ ستنزل أليس كذلك؟!.

أجبت فورا:

ـ لم أعد أطيق أشواقي..

تبسمت ولم تعلق منتظرة، أردفت:

ـ صار خيالها يوجعني في كل لحظة!. لست أقول شعراً بل حالي هكذا يا "رجاء"!.

تلفّتُ حولنا. كان الثلج يتساقط بغزارة، وعيون المقاتلين تحملق بنا بفضول، راصدة ما يطفو على وجهينا. قالت:

ـ لندخل الغرفة!.

الغرفة التي أشارت إليها صغيرة تنام فيها مع زوجة من كان

يقود تنظيم الفرات الأوسط وقتها "أبو تانيا" (عدنان عباس)- تلكأتُ متسمراً جوار الباب، ليس خشية من شيء، بل كنتُ أفكر بما يجول في نفوس المقاتلين المحرومين، في أخيلتهم، وهم يلاحقون قامتي الطويلة تكاد تبتلعها غرفة صغيرة فيها امرأتان. سحبتني بقوة قائلةً بصوت سمعه الجميع:

- تعال خرب إبليسك!.

أنقدتُ مثل طفلٍ. أحنيتُ رأسي كي ألج الباب الواطئ. وجدنا "أم تانيا" تجلس جوار المدفأة، والفانوس معلق على رفٍ يرتفع مقدار متر على الجدار البعيد. لا أتذكر الآن ما خضنا فيه من أحاديث، لكن لا أستطيع نسيان ردها على سؤالي حينما أدركتُ أنها عازمة على التسلل إلى مدن الداخل.. سؤالي المرتبك العارف بما قد تلاقي من مصير.. كنتُ أخاف أن يقبض عليها وتضيع.. متذكرا أصوات تلك النسوة اللواتي يُعَذبنَّ في عمق الليل، صراخهن الموجع، توسلهن بالجلاد. كنتُ أسمعها وأتمزق، معصوب العينين، مقيد اليدين بجامعةٍ حديدية في الأمن العامة ببغداد في صيف 1980 . سألتها سؤالاً كنت أظن أنه سيثنيها عن عزمها على التسلل إلى حيث الموت الأكيد:

- رجاء أسمعي

رنتْ نحوي بعينيها اللامعتين منتظرة:

- تعرفين لمن حنيني!.

لزمت الصمت لحظة. كانت تنتظر سؤالي الواضح رغم إحساسي أنها أدركت ما أرمي إليه، فقلت:

ـ إلى أين أنت ذاهبة!.

هدرت في ضحكةٍ هزت ضوء الفانوس وأرجفت وجوهنا الملتفة حول المدفأة، وغنت أغنية فيروز:

ـ أنا عندي حنين ما بعرف لمين!.

ليليَّ بيخطفني من بين السهرانين

ويصير يبكيني

لبعيد يوديني

وما بعرف لمين!.

أنصتنا لصوتها الشجي وهي تضفي على كلمات الأغنية عبقها الخاص.. حنين عميق.. عمق محنة العراقي المتجسد بتلك الأغنية في عتمة غرفة رطبة ببيت جبلي منسي أندثر.

وقتها كنتُ خائفاً عليها، فهي لا تعرف ما آلت إليه الأوضاع في غيابها. لكن ذهب كلامي أدراج الريح، وكانت ترد على دقة كلامي وخشيتي من عذابِ الأقبيةِ التي لا يتمناها الفرد لعدوه زمن صدام، ترد:

ـ أبو الطيب.. أنا عندي حنين!.

بكل مرح!.

تردف:

ـ وداعتك أبو الطيب ما بعرف لمين!.

خرجتُ من الغرفة ليلتها، وبكرت بالنهوض قبيل الفجر، كي

ألتحق بسريتي، وأكتم أمر نزولي إلى حين ترتيب الأمر. في طريقي إلى الدرج النازل صوب الوادي التفت أخر مرة إلى غرفتها الصغيرة وكأنني ألقي عليها نظرة وداع، وجرى الأمر هذا المجرى بالضبط؛ فبعد تلك اللحظة لم أرها قط. لما وافقوا على تسللي عدتُ إلى ذلك الموقع ـ حاج مامند ـ.

وصلت لم أجد "رجاء"!.

كانت قد تسللت قبلي إلى من كانت تحن إليه بغموض وبلا سؤال.

لم أجدها. سألتُ عنها قالوا كلاماً يموه، لكنني كنت أعرف أنها ذهبت لتعانق حنينها. تمنيت لها السلامة، لكن أمنيتي خابت.. لم أدرك أنها خابت إلا بعد عقدٍ ونيفٍ من السنين.

قبل ثلاثة أشهر، كنتُ في حفلٍ عراقي في قاعة ما وسط كوبنهاجن، همسَ لي أحد الحاضرين مشيراً نحو امرأة شيباء شاحبة سماها " أم غادة"

ـ أخت رجاء.

ذهبتُ إليها فورا وسألتها. كانت هي الأخرى لا تعرف قصة مقتلها. لكنها أفضت لي بطرفٍ مما كانت الفقيدة تتوق إليه، إذ عادت إلى أهلها متخفيةً، حتى قبضوا عليها بصحبة أخيها الصغير، فضاعا في تيه الأقبية، ولم يعثر عليهما حتى في مقبرة جماعية من المقابر المكتشفة لحد لحظة كتابتي هذه.

وحدي من يفهم ترنمها الذي بقى طلسماً للجميع.

كأنها كانت تفضي عن مأزق بقعة العراق الدامية،

وحدي وهي الحبيبة التي لا أريد حتى تخيل كيف قتلوها، ذلك يجنن وضعي الممسوس فعلا في المنفى.

أفهم الآن وبعد أكثر من ثلاثة وعشرين عاما ترنمها العميق الحنون:

ـ أنا عندي حنين!، لكن وداعتك "أبو الطيب"* ما بعرف لمين؟!.

الدنمارك 2005

جرح الحمامة

لكل منا قصته. رجال كبار السن تركوا دفء البيت ورائحة الزوجة وضجيج الأطفال. شباب لم يرتووا بعد من هذه المسافة الممتعة في عمر الإنسان. أزواج رحلوا باكراً عن زوجاتهم الفتيات اللواتي بقين يتحرقن بسعير الأشواق. أكراد، عرب، صابئة وتركمان هجروا المدن ومباهجها، والتجئوا إلى الجبال الوعرة حاملين بنادقهم وحالمين بعدالة أبدية.. مستحيلة.

ننتشر في خيم حول بيت من الأحجار قائم في أعلى الرابية. بيت وحيد محاط بأشجار البلوط والتفاح، يجري إلى يساره نبع ماء يأخذ مجراه بالانحدار نحو الوادي. كان كل شيء هادئاً في ذلك المكان الحدودي النائي، وكنا نشعر بالغبطة، والبهجة

** أبو الطيب الاسم الحركي لسارد النص

والحرية رغم المشقة وقسوة الجبل، لكن في ذلك اليوم البعيد أحس كل واحد منا بشيء فقده.. كيف حدث ذلك؟ الكل يسأل نفسه هذا السؤال المر، وكلنا يعرف جوابه، لكن لا أحد يريد تصديق ما جرى. الموضوع أعقد بكثير من الأجوبة كل الأجوبة، فعندما تتآلف مع كائن ما إلفة وديعة، تنام وتصحو وأنت موقن تمام اليقين بوجودها.. يعز عليك فقدها، مثلما الإنسان يألف يده ولا يشعر بوحشتها إلا عندما تصاب بعطب، كذلك الروح.. فالفتها أعمق وسماؤها أرحب. وحين تفقد نجمتها المتفردة الباهرة الضياء، تجد نفسها في ليل مظلم بهيم. أحس كل منا بالوحشة ذئباً برياً يحاصره في عاصفة ثلجية وهو عاري اليدين، منهوك القوى.

أول يوم وصلتُ إلى هذه القاعدة، لم أتبين من أمر البيت شيئاً. ظننته يعود للمقاتلين، لكن القدماء أخبروني بأنه يعود لعائلة كردية إيرانية تمتلك كل المساحة التي نشغلها، الأشجار والحقول وقاعة الطين وزريبة الحيوانات. في اليوم التالي نزعتُ غبار السفر الطويل في أحلك حمام في الدنيا، وصعدتُ قبيل وجبة الظهيرة عكس مجرى الماء قاصداً رابية النبع القريبة من البيت. جلستُ على صخرة منحوتة ككرسي، أغرقني التذكر، فرحلتُ إلى عوالم مدينتي الجنوبية البعيدة، أسواقها وناسها، ليلها وصبحها، بردها حرها، مدارسها وصباياها الفاتنات المفتتات قلبي الهش الضعيف أمام السحر. وكطلقة فجّت رخاوة أحلامي بقامتها الرامحة الملفوفة لفاً ووجها الممتلئ بحمرة الرب، تشع تحت وهج الشمس قادمة من البيت، ميممة شطر النبع. زهرت خطاها القافزة في قلبي وعندما حاذتني

رمتني بنظرة خاطفة بارقة، فتمايلتُ في جلستي مختلاً من وساعة عينيها الباسمتين. كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً بلون الجوري مفروشاً بالنرجس الأبيض. لوت شعرها الأسود الطويل ضفيرة تتدلى مقسمة ظهرها التام الانتصاب، وتتأرجح عند الكفل المدور البارز، تمسه بضربات خفيفة مع كل خطوة تخطوها. أصبحتُ أراها بوضوح وهي تنحني إلى حوض النبع لتملأ دورق معدني بالماء. مع كل غرفة تلسع روحي بزرقة عينيها الصافيتين اللتين تمران خطفاً بين ميلة وأخرى. تفحصتها. خصرٌ ناحل بالغ الضيق، وتكور بارز أسفل الظهر لا يخفيه الثوب الفضفاض. أنف صقيل منسجم مع امتلاء الوجنتين الرمانتين. شفتان مكتنزتان حمراوان تؤطران فمها الصغير.

- يا لها من مصيبة!.

يكانت نظراتي مرتبكة تتقافز بين وجهها والدورق الذي كاد تمتلئ. تمنيتُ أن تظل هكذا أحدق فيها وهي تغرف الماء وهو لا يمتلئ أبداً. استقامتْ بقامتها المشدودة، وابتعدتْ تتلوى بمشيتها تلوي الحية. منحتني لفتة غزالة غنجة عند حافة جدار البيت قبل أن تغيب خلفه. عدتُ إلى القاعة الطينية شاعراً بالنشوة والغبطة.

مع طول فترة مكوثي في القاعدة، فضحت الأيام فحوى الأشياء نافضة الغبار الذي يحاول كل منا التخفي تحته، ومظهرةً أهواء الأرواح الحبيسة، فانكشفتْ الأمور بسطوع. وكما لكل منا قصته، فلكل منا أحلامه أيضاً، الحائمة حول محورها الشفاف المتمثل في المهرة العذبة المعذبة.

قال حبيب الأجرب:

ـ سأطلب يدها!.

ضحكنا منه وحاولنا تسفيه فكرته، فاحتد قائلاً:

ـ إنها تميل لي. بالأمس صبحتها بالخير فصبحتني برقة.

لم يبعث تأكيده سوى المزيد من الضحك المتوجس، وقد مس قلوبنا خيط خوف من أن يكون كلامه صحيحاً قلنا:

ـ ماذا جرى لعقلك؟ أأنت مجنون؟ أين نحن من الزواج؟.

في تلك اللحظة كانت مقبلة وهي تحمل سلة ملابس كي تغسلها بحوض النبع. صرعنا الصمت، وتعلقت أبصارنا بخطوها القافز، وللتمويه على بعضنا، كل منا تشاغل وكأنه ينظر إلى الغابة الناهضة حتى القمة خلف النبع، بينما أبصارنا معلقة بذلك التكوين الهائل المارق الخارق.

لاحظتُ كبار السن، يخالسون النظر أثناء مرورها، وعيونهم تغور بعوالم حالمة قديمة، ثم تبرق بالشهوة، فيديرون وجوههم نحو الأشجار والجبل محررين الحسرة تلو الحسرة.

يعمدون غالباً إلى المزاح معها، وفي قسماتهم المتعبة تومض نشوة سرعان ما تنطفئ غائرة بين ثنايا أخاديد البشرة المغضنة، حتى إنني وجدت في أحد المرات شيخاً طاعناً يمازحها بتقليد نبرة صوتها الناعمة، وهي تكاد تسقط أرضا فرط الضحك والغنج، وتصّر على إعادة جملتها، فتستثيره، وتجعله يمعن في تنعيم صوته الواهن متحولاً إلى صبي.

وبتقادم الأيام ازدادت الأشياء عرياً، ومع بيانها التام أيقنت أن هذه الطيرة ترطب برذاذها الفواح جفاف أيامنا.

قال كريم:

- لو أراها عارية. والله لما اشتقتُ مرة أخرى لرؤية عري أية امرأة.

كنت أغص بالضحك.

ـ تضحك ها... ألا ترى أي بياض رائع هو بياض بشرتها.

كانت تشغل لحظات فراغنا الكثيرة، وتلهينا لحين عن أشواقنا المبرحة إلى مدننا الجنوبية البعيدة الحارة، وإلى أحبتنا وأهلنا وزوجاتنا وأصدقائنا وأيامنا الماضيات.

قال حامد:

- والله لو تقع بيدي لالتهمتها مثلما التهم آدم تفاحة الجنة.

وهي الباسمة دوماً لا تبخل على أحد بنظراتها الماكرة العذبة ناثرة مرحها بأرجاء المكان.

قلت في نفسي

- الملعونة عادلة توزع عبقها المسكر بالتساوي، إذ لا بد أن يحظى الواحد منا باهتمام ما خلال النهار، نظرة، بسمة، ضحكة، غمزة، نفضة رأس، تقطيبة غنجة، انحناءة مقصودة، أو طرف حديث.

في صبيحة مشمسة كنت أسند ظهري إلى ساق شجرة مشمش عارية، فالخريف أصبح فتياً، أشحب الأوراق وذهب بخضرتها ثم هزها بريحه العاصفة فتساقطت مغطية الانحدارات والدروب وأسفل الأشجار. رأيتها تتسلق شجرة بلوط تميل عند حافة

الوادي، تغيبها الأغصان الكثيفة تارة وتكشفها الفرجات في أخرى. ومن بين نثار الوريقات المتهاويات والأفرع المرتعشة نوّر قمرها، وانسكب صوتها الرخيم على روحي المستعرة ماء زلالاً.

شيرينه سه وره دانه ى هه ناري

كيره جوانه كه ى ناكودة واري*

وهي تعبئ كيساً مشدوداً إلى وسطها بحزم الأوراق التي تنزعها من الغصون. ضيعني قمرها الباهر رغم ضوء الشمس. كنت أظن أنني الوحيد الذي يراها، لكن يبدو أننا كنا نراقبها كل من زاوية تمكنه من رؤيتها بوضوح. وعندما تنتقل في قلب الشجرة وتحول الأغصان دون رؤيتها، يغير الواحد منا مكانه متصنعاً شاغلاً وهمياً، حتى إن أحدهم دنا مني وكلمني حديثاً مشوشاً لا رابط له، وهو يسرق نظرات خاطفة إلى البلوطة الراقصة حيث يمكن مشاهدتها من موضعي بيسر، ثم رمقني بحسدٍ راداً على تحديقتي الماكرة قبل أن يعود باحثاً عن مرصد جيد.

قال صباح:

- اللعنة على روحي.. إنها سمكة طرية.

في غروبٍ وبعد العشاء دعونا للتجمع، وخطب فينا نفس الشيخ الذي ضبطته يقلد صوتها، قائلاً:

- نرجو أن تراعوا الظروف الاجتماعية.. كوننا غرباء، لا

** أغنية شعبية كردية "حلوة شقراء كحبة الرمان بنت جميلة من الكرد"

تتجمعوا قرب البيت.

لم نأخذ بكلامه طبعاً، فالألفة سكنتْ أرواحنا المجروحة، صارت حمامة تعودنا عليها، ولا نملك صبراً على عدم رؤيتها يوماً، تحلق بسماواتنا المجدبة ناثرة في نفوسنا المحرمة عبق المرأة وسحرها.. ذلك التعود وتلك الألفة والاستغراق الحالم كان عزيزاً علينا. كنا نخشى عليه أشد الخشية ونداريه ولا نصدق فقده.

مع خطوط فجر باهتة ليوم خريفي حزين غادرنا القاعدة ثلاثة رجال وبغلين قاصدين قرية بعيدة لشراء التبن. انحدرنا على مسالك جبلية ضيقة أفضت إلى أودية أخذتنا بدورها إلى روابي مشجرة بالبلوط العاري. لم نرجع إلا وعتمة أول المساء تتجمع تحت الأشجار، وفي الأودية. أنزلنا حملتنا في زريبة الحيوانات. ما أثار استغرابي هو برودة استقبالنا، وقسمات الرجال القانطة، المعفرة برمادها. هبط الظلام على الرابية والبيت والقاعة وحزن الرجال. أوحشني الليل والسكون فالتجأت إلى فراشي في غرفة الطين الطويلة التي نستأجرها، أرمق بخشية الوجوه المستغرقة بألمها في ضوء فانوس شحيح موضوع على رف في الجدار. شيء ما يدمي قلوبهم، أيقنتُ بذلك والقاعة فقدت ضجيجها المعتاد كل ليلة. شعرت بالاختناق والباب الموصدة على الليل المدلهم الحزين. لم أطق الجو المتلبد، فملت جانباً، وهمستُ بأذن كريم المستلقي جواري والغاط بدوامة سيجارته:

ـ ما الذي جرى؟.

حدج نحوي بدهشةٍ، ثم لمعت عيناه في شحوب الضوء الذابل وقال:

ـ ألا تدري؟.

لم أفه بشيء. هززت رأسي مستفهماً. أحتقن وهو يردف:

ـ زفوها ظهراً إلى فلاح يسكن قرية نائية.

ـ من .. من هي.. من؟.

وقبل أن يفوه بكلمة حزرتْ، فأشرت له الكف عن ذكر التفاصيل ويدٌ هائلةٌ امتدتْ إلى سماء روحي وأطفأت نجمتي الوحيدة وتركتها سماء خاوية مهجورة. خنقني الألم. خنقتني القاعة والوجوه القاتمة.. خنقتني الأشجان والعبرات، فهرعتُ نحو الباب ناحل الخطو. فتحتها، وألقيت نفسي في الحلكة عاباً من الليل الخريفي هواءه البارد.. ملتاعاً.. محزوناً وطيف بسمة عذبة سوف لا أراها بعد اليوم يذيقني شهد العذاب.

15/9/1982

قرية دولكان ـ الحدود الإيرانية ـ العراقية

5- "كتابات الفجر"

إلى: حيدر عبد الحسين الشباني

أستيقظُ مذعوراً وأشخص نحو السماء. كنا ننتشر صيفاً في ساحة الدار الفسيحة. أهدأ قليلا فالفجر لم ينبلج بعد، والنجوم مصابيح دانية. البثُ تحت الغطاء منصتا . الكل يسقط في النوم، أخواني وأخواتي العشرة، أمي وأبي. وقتها لم أحس بالخوف أبداً، بل مشدودا إلى تلك المغامرة الجديدة. علبة الصبغ أخفيتها

في غرفة الطين المنزوية بطرف الحوش البعيد، أما الفرشاة فقد بقيت مع "حيدر". أزحت البطانية عن جسدي. نهضت بنصفي الأعلى. لا صوت ولا حركة، الكل يغور في الظلمة ونسيم أخر الليل المنعش.

ـ متي كان ذلك؟!. هل كان في صيف 1968 أم في السنة اللاحقة؟!.

لا أتذكر الآن بالضبط، لكن ذلك اليوم أرى تفاصيله وكأنه البارحة. أراني كيف تسللت من فراشي متحاشياً الأجساد الغافية، وباللمس عثرت على العلبة الكبيرة، وخضت في ظلمة الحوش إلى المدخل المظلم. أزحت سرقي الباب بهدوء فلم يصدر صوتاً. سحبت الدرفة نحوي قليلا.. قليلا، ونفذت إلى الشارع وضجيج فرن مخبز حاج جاسم. جلست حسب الاتفاق جوار الباب منتظراً. دقائق ولمحت "حيدر" يأتي من طرف الشارع مسرعاً. قمت من مكاني حاملا العلبة، حيّاني بهمس وأمرني اللحاق به. هو من أقترح الفكرة ، إذ كان يكبرني بثلاثة أعوام، ومارس هذا العمل مرات دون أن ينكشف.أسرعت خلفه، فأخذني إلى باطن المدينة. في الصمت والظلام بدأنا نخط على الحيطان كلاماً كبيراً يدعو الناس للثورة على الحكومة الجائرة. واحدٌ يكتب والآخر يراقب. وقتها لم يكن في الشارع سوى الحارس الليلي المسكين الذي نستطيع تحاشيه بسهولة. ما كنا نخاف منه هو دورية الشرطة، أو أن يفزَّ أحدهم ويجدنا جوار جدار بيتهم أو مدرسة فيشتبه بنا ويصرخ، فيستيقظ الجميع كما هي عادة العراقيين وينكشف أمرنا.

أخبرني "حيدر" أننا يجب أن نتحاشى جدران بيوت الناس، ذلك يسبب لهم مشاكل، ولما كنا نحب الناس رحنا نركز على حيطان المدارس والدوائر الحكومية.

ـ تعيش الطبقة العاملة

ـ السلم في كردستان

ـ يسقط الحكم العسكري

ـ يعيش الحزب الشيوعي العراقي

مع الفجر نفدت العلبة، ألقيناها في نهر المدينة وعدنا إلى "الحي العصري" الذي لم نخط على جدرانه حرفاً. إلى هذه اللحظة وبعد أكثر من سبعة وثلاثين عاماً أستطيع تذوق تلك النشوة التي ملأت كياني لحظة أوبتي في اختلاط الضوء بالظلام إلى دارنا الذي تركت بابه مردوداً.. وكيف اندسست تحت غطائي قبل موعد نهوض أمي بفترة وجيزة. وفيما كنت أتأرجح على حافة النوم أيقظتني لأجلب خبر الفطور من فرن الحاج جاسم الكائن في مدخل شارعنا.

تتذكر كتابات العصر تضحك على الحيطان

تتأملها تتذكر حياتك من وره الأفكار والدخان

الصباح التالي ستضج المدينة وتستنفر الشرطة فتتوزع لتفتش وتغير على المشبوهين. وقتها كان من المستحيل أن يُشك بنا ونحن مجرد مراهقين لم نزل نقضي وقتنا في متابعة البنات وكتابة رسائل الحب، والكلام عن الجنس وأسراره.

كان الأمر سراً بيني وبين حيدر.

وكنت لا أعرف أن ذلك اليوم سيأخذ كل عمري إلى منحى أفضى بيّ إلى منفى اسكندنافي بارد أقرض فيه أيامي الثقيلة عاجزاً بعد ذلك العمر العاصف في عراق دامٍ لم يهدأ لحظةً.

عديت الشوارع ورجعت تعبان

صح عديتهن.. لو بالعدد غلطان

شعلت أثنين وثلاثين ليلة بالسره بذهنك

خفية أنتظر عيدك

وأتلمس ضواها إبذكريات ايدك

في شتاء 2004 عدت إلى تلك الأمكنة والجدران. إلى كتابات الفجر، وفي أمسية خاصة بشهداء الحزب الشيوعي دعيت لإلقاء كلمة في قاعة إعدادية الديوانية عن أخي كفاح وأولاد عمتيَّ صلاح وعلي، وابن أختي محمد. القاعة ضاجة بذوي ضحايا اليسار العراقي كنت بصحبة أبني "كفاح" الذي كان يصور بالفيديو. ما أن دخلت القاعة الواسعة حتى أقبل نحوي رجلٌ قصير القامة يخفي عينيه بنظارة سوداء كبيرة. فتح ذراعيه وعانقني بحنان. أحسست بجسده الخشن المتخشب صلبا بين ذراعي. قلت له:

ـ ليش لابس نظارة، أنزعها أريد أشوف عيونك!

كنت مع نفسي أحاول التعرف عليه، فتمتم بشيء ما على عجل وردد:

ـ ما تدري عيني راحت بالحرب!.

أصررت على نزع نظارته، فأزاحها قليلا. أخرسني الهول، في مكان العين رأيتُ حفرةً صماءَ تنتهي بنقطة. ركزتُ فيها عميقاً فوجدتُ تيه صحراء وخواء عالم. اللقطة سريعة لم يتسن لي الخوض معه بحديث يجعلني أتعرف على شخصه، إذ أقبل نحوي العديد من أبناء المدينة. وفي زحمة الأمر والانشغال نسيت الأمر.

في يوم كنت أجلس فيه مع "ثامر الحلاق" فسألته عن أخيه "حيدر" صاحبي في كتابات الفجر الأولى، فأخبرني بأنه موجود يبيع الملابس القديمة في سوق هرج المدينة. وحكى لي قصته مع الحرب. قال لي أنهم ثلاثة قرروا الخلاص من جبهة الحرب، فعزموا الدوس على لغمٍ صغيرٍ مزروع في الخطوط الأمامية كي يفقدوا مشط قدمٍ ويتسرحوا، فداس حيدر ولم يلحق بإبعاد وجهه كثيرا فضربته شظية في عينه ففقدها بالإضافة إلى مشط قدمه اليسرى بقي حياً وتسرح.

قلت له:

ـ أين أعثر عليه؟!.

فتدخل أبني قائلا:

ـ بابا سلم عليك أول ما دخلت للقاعة بيوم الشهيد الشيوعي!.

قفزتُ من مكاني لما استعدتُ المشهد، هاجسا كونه ذاك الشخص الذي كان يخفي عينيه بنظارة سوداء كبيرة العدستين. رددت :

- خاف !.

فعرف أبني على الفور المقصود. هرع إلى كاميرا الفيديو ليريني المشهد. تأملته من جديد، فخنقتني العبرة. قائلا مع نفسي:

- هاأنذا أنسى صاحبي في كتابات الفجر، حينما كنا نجوب شوارع المدينة ونخط على الحيطان أمانينا وحلمنا في مدينة فاضلة أفضت بيّ إلى منفى بارد وهو إلى بائع خردة في سوق هرج بالديوانية بنصف قدم وبعينٍ واحدةٍ يخفيها تحت نظارة سوداء.

مثل ما الطير تتنفس گبل ما تموت.. من تنطبع ع الحيطان

بس تتلمس الحيطان، ما تعرف أمنين تفوت

لو كثرن حياطين الضجر والملل

شوف بعينك الدنيا بغمج صحراء

وأعبر وحدك الوحدة

قمت فورا قائلا:

- أين أجده؟.

نظر ثامر إلى الساعة وقال:

- هو الآن في سوق هرج!.

في الطريق إليه نهضت تلك الأيام في ذاكرتي بهية. استعدتُ كل لحظةٍ عشناها معا، في سبعينات القرن الماضي، حينما بدأ يكتب الشعر الشعبي، ويحفظ بشكل عجيب مقاطعا من كتب ماركس وأنجلس، كان يقيس عليها الحياة، فخسر زوجته الأولى

التي أحبها، وخسر لاحقاً زوجة ثانية، وهو الآن متزوج من ثالثة أو رابعة لا أتذكر ما قاله لي أخوه، لكن المشكلة القديمة نفسها مع المرأة. ليالٍ عاصفةٍ قضيناها معا في الحدائق والبارات والأشعار قبل الحملات والحروب. من طرف الشارع أشار أبني إلى حيث يقف يصرخ ببضاعته المستعملة، خرق ملابس:

ـ الحاجة بالفين!.

يصرخ بحماس معاركاً من أجل لقمته وهو الذي جاوز الثالثة والخمسين. اقتربتُ منه، عانقني وراح يشكو من أخلاق البشر، من تحولاتهم، ممن كان يساريا وأصبح ثريا، من كل شيء. وعاد إلى مقولاته الثابتة بحق الطبقة العاملة في السلطة ومجتمع اشتراكي. لم يعطني فرصة لأعامله بشجن ولنستذكر تلك الأيام. كان يبدو واثقا من الغد الشيوعي. وعلى الرصيف المقابل مسافة عشرين متراً كانت مجموعة من مليشيات دينية متطرفة تخرّب محل تسجيلات وتشتم الكفرة، وخلفها في الشارع العام كانت دورية أسبانية تجوب أرجاء المدينة.

رددت مع نفسي بيت ـ طارق ياسين ـ:

شوف بعينك الدنيا بغمج صحراء..

وأعبر وحدك الوحدة

30/9/2005

منشورات جامعة عين شمس «AUN»

6- حب في بار

- يا إلهي..أين أذهب بنشوتي؟

صرخ وهو يتسلق الهضبة المؤدية إلى وسط المدينة التي بدت شوارعها في منتصف الليل هادئة رغم أنها ليلة سبت:

- أخ من شوارعهم تزيد الوحشة وحشةً!.

قالها بوجه الرصيف، ودلف إلى فرعٍ ضيق ينفتح في منتصف شارع المشاة القصير، قاصداً بارٍ يتذكر أنه كان يرتاده

أوقات الأزمات، حيث يكون محشوداً في مثل هذا اليوم بالباحثين عن رفقة ليلة أو عمر. دفع الباب. واجهه الصخب والجو الخانق باللغط ودخان السجائر والموسيقى الراقصة لمن فاتهم قطار الفتوة. المدخل يفضي مباشرة إلى باحة صفت إلى جانبها الموائد تنتهي بالبار المقوس بنصف دائرة، تنفتح على باحة جانبية مستطيلة بسعة باحة المدخل تنتهي بسلم ذي أربع درجات يفضي إلى ما يشبه منصة مسرح ضيق يتسع لصفين متقابلين من الطاولات. وجد مكانه المفضل غير مشغول، حيث يطل منه على فسحة الرقص وقت احتدام السكر وهوس البحث. البار ليس غريباً عليه. كان قد أرتاده بصحبة صديقه الطبيب الذي كان ثائراً معه في الجبل مرتين.. وفي المرتين كان يُعَلق فيها من نسوة لتوهن دخلن الثلاثين. وفي المرتين كان يعتذر متفاخراً بزوجته الجميلة الساهرة بانتظاره ساخراً من دهشة الطبيب الذي يريد تجريب غير زوجته دون نجاح، ومن حاله وهو يتخيل شجار أخر الليل الذي ينتظره عقب كل تأخير. كان يحسها تشك بهِ حتى أنها تقترب أحياناً في السرير وتشمه فيتوهم شوقها ويحاول، لكنها تنكمش في طرف السرير بعد أن تتأكد من خلو رائحة الخمرة من أي عطور غريبة.. أضحكه المشهد؛ خفقان قلبه المضطرب وانفصال رأسه عن الوسادة، كتلتها التي تصغر في تكورها، أرقه، عذابه، مرارته، وتسلله إلى الكأس الرحيم مع أول خيط للفجر. عدل من جلسته واضعاً أمامه كأساً من الويسكي الصغير وقنينة بيرة جلبها من البار. وتأمل ككل مرة لوحات الحائط بأطرها الخشبية وألوانها الداكنة المغمورة بفتل دخان السجائر الطائفة في مخروط ضوء ضيق يسقط من

مكان مخفي في السقف على مساحة اللوحة. بورتريهات لوجوه واجمة بملابسها العسكرية وقبعاتها البحرية وصدروها المطرزة بالأوسمة. سفن تتحطم في موجة هائجة عظيمة. كان يرى ذاته في الذروة الحاملة كسر خشب متناثرة مع الرذاذ معلقة بين الماء والسماء. حقول فسيحة تمرح في وسطها سيدات أنيقات مع حصنهن وجوقة العبيد. حوريات بحر عاريات يخرجن من قلب الموجة المندفعة من عمق الزرقة المضببة بأنفاس الأرض والأشجار. يعب البيرة والجو يحتدم باللغط والغناء الضاج. الراقصات والراقصون السكارى يتقاطرون على الساحة المدورة وسط المستطيل. يتفحص الوجوه وجهاً.. وجهاً إلى أن يقع في شرك قسمات تثير في نفسه شيئاً من عبق الطفولة وأشكال نسائها المختلفات اللواتي طالما حلم بهن في خلواته. يأخذها من وسط طاولتها والمحيط ويلج بها في امتداد الحقل الشاسع، بين أشجاره العاريات في الجانب البعيد. يحضنها بحنان ويغيب في الموجة الطاغية متكسراً على صلابة بنائها المتمايل في رقصة الموجة العملاقة وسط بحر اللوحة والساحة الوسطية المدورة الضاجة بأجساد الراقصين الناضحين، الصارخين المنفصلين الملتصقين. يفور.. ويفور محتدماً بالماضي، خيال اللحظة، عنفوان الروح قبيل انطلاقها نحو الآفاق الغامضة المضيئة حيث يختلط الحزن بالفرح، البؤس بالنشوة. ومن أمكنة غامضةٍ في أعماقه تنطلق صرخة مفردة تجعل كل من في البار يشخصون نحوه وهو يقف مثل فارسٍ جبارٍ رامحاً بقامته الممشوقة. ليخطو نحو السلم القصير نازلاً إلى سورة الدائرة المائجة بالأجساد الراقصة.

أول مرة يكتشف قدرته على الرقص الإيقاعي، المنبعث هكذا من إلهام اللحظة التي يندمج فيها بالجو والموسيقى والغناء والسكر، وعذاب الروح المسحوقة تحت وطأة الأيام، في أمسية بعيدة كان فيها مدعواً لحفل عرس شاب يعمل حداداً من أصدقائه الأميين الذين تعلقوا وقت الجبهة الوطنية أواسط سبعينات القرن العشرين بالمثقفين اليساريين المناهضين للسلطة.. وقتها كان مسحوقاً، فمن ناحية أفتقد أصدقائه الذين تفرقوا بين مختفٍ في المدن الأخرى، أو معتقلٍ، أو هاربٍ خارج العراق، وذل إجباره على توقيع تعهد بعدم العمل السياسي مع أي حزب غير حزب السلطة وإلا سوف يعدم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حصاره من قبل العائلة التي تضغط عليه كي يتركها معتقدين بأنها سوف لا تورثه سوى التعاسة والعذاب كونها فتاة لعوب. كان قبيل النهوض والرقص مغمورا بحنان تلك الوجوه الكادحة، المتعبة، صلبة القسمات وكأنها جذوع نخيل.. حمالون.. مصلحو درّجات.. عمال بناء.. نجارون.. حدادون.. بائعو خضر في السوق.. صباغون ينظرون إليه وكأنه نبي هبط من السماء وهم لا يدرون مذلته لحظة التوقيع.. مذلة عجزه في مواجهة ضغوط العائلة.. أشواقه المبرحة للأصدقاء الغياب.. سخافة وعبث وجوده الذي بات يحتقره في دأبه اليومي في دائرة زراعية صغيرة بناحية نائية.. في غموض اللحظة القادمة.. المحملة بتهديدات خفية شتى.. في غمرة شعور الانسحاق ذاك وبعد الكأس الخامس وجد نفسه ينتصب وسط دهشة أولئك الناس الفقراء ليرقص على إيقاع ينبعث من أعماقه الغامضة. يدور حول نفسه.. يتوتر.. يمد

عنقه.. يفرد ذراعه مثل جناحين يشرع بالطيران على إيقاع أغاني غجرية عراقية أغاني غجرية وطبلة لا يدري من أين انطلقت.. يتهالك على ركبته.. ينود بجذعه الأعلى.. يرقص راحته.. يضرب جبهته على الإيقاع الحزين.. كان يندمج في مطلق غريب يكتشفه أول مرة.. مطلق لا جسد ولا تعب فيه.. مطلق فيه الحركة تنساب من منابعها في الروح رغم التأرجح على حافة الضياع:

هل كان ذلك إيحاءً من قراءة رواية نيكوس كازانتزاكي - زوربا اليوناني أم أن الأمر مختلفاً؟!.

لم يشغله ذلك السؤال.. بل كان يتخيل نفسه "زوربا" ذلك الحي الفقير وسط دهشة العيون المحملقة في جسده الراقص، المتطوح في التواءه وارتجافه، في انتصابه وتقوسه، في الانطلاق السريع المباغت والتوقف المفاجئ. كان يصطلي في أتون روحه التي نزعت قشرتها القاسية.. إلى أن رَحَمَ العريس بحاله، فأخذه إلى حضنه. قَبَّلَهُ شاكراً له هذا اليوم الذي سيصبح مشهوداً.. فقد رقص المثقف المناضل في حفلة عرسه.. أحس بعدها بسلام عميق. ومن يومها أخذ يمارس طقس الرقص الهمجي وحيداً. ثم أمامها أول أيام العرس. كان يرقص سواء أكان فرحاً أو حزيناً. وكانت تبتهج لمرآه وهو يتطوح فارداً يديه، ضاماً قدميه. خليط من رقص غجر الشرق والفلامنكو وحركات العسكر وذوبان الأنثى بأحضان الرجل، وتوتر الذكر لحظة الخصب. خليط من حركات بدائية تصلح لكل إيقاع أو هكذا يحس. أما هنا في المنفى فقد أصبح ذلك يثير اشمئزازها فتتركه وحيداً حال شروعه في الرقص وقت السكر. رقص

بجنون عندما علم بخبر مقتل أخيه الصغير في الأقبية، ورقص لموت أبيه في الشام، رقص لمقتل أبن أخته لاحقاً، وفي الزنزانة أيضاً، ورقص يوم موت أمه قبل ثلاثة أعوام، رقص لها فرحاً لحظة تجليها، وأصبح يرقص مبتهجاً عقب كل مضاجعة يحس فيها أنها تبغيه بكيانها كله دون شروط، ورقص أيضاً وقت إحساسه بنأيها عنه وهي لصقه في الفراش وبحر اليوم الشاق.

أصبح وسط الأجساد، ابتدأ في إظهار ما يفور فيه من عذاب. تصالح مع لحن الأغنية الصادحة ليصل إلى تلك النقطة المتألقة البالغة ذروتها، فوجد نفسه وحيداً وسط الساحة المدورة يمارس طقوس الصلاة الوحشية في ركوعه وسجوده وانتفاضته.. في توتره واسترخاءه.. في زحفه وتحليقه.. كان مغمض العينين. تعبان وحزين.. إلى أن أحس بحضن حار يحتويه، ويهبط به نحو السكينة صوتٌ شديد العذوبة:

- توقف.. توقف.. كفى!.

فتح عينيه كانت شابة جميلة. قادته مثل طفل إلى المغاسل. وبكفها الناعمة مسحت وجهه بالماء البارد. كان يحس بالاختناق.. ودون أن يقول ذلك شعرت بحاجته إلى الهواء النقي. قادته نحو الباب. وحضته في الشارع. كان يحس بحاجة إلى غفوة يستعيد بها قواه التي أنهكها الرقص. وقبل أن يغفو جوارها وهي تقود سيارتها، حدق نحوها وشهق. كانت المرأة نفسها التي أخذها في مخيلته أول دخوله البار من زحمة الطاولة إلى أشجار الحقل الفسيح وذروة الموجة نفسها. أستيقظ بشكلٍ تام هذه المرة فقد كان يستيقظ ويغفو.. قادته في مدخلٍ عالي السقف

إلى بناء وسط غابة ليجد نفسه صاحيا عارياً في حوض حمام، يغط حد الرقبة بالماء الدافئ. وهي إلى جواره تمسح جسده برغوة الشامبو العبق.. همست بأذنه:

ـ كيف حالك الآن؟!.

تقاطيع جميلة في منتصف الثلاثينات.. تضج بالشهوة والحنو. تقاطيع لا تختلف عما كان يخلد أمامها ساعات في قاعات المتاحف..

ـ هل أنا في حلم.. في رحاب أخيلة السكر، أم أن هذه العارية الساحرة لها حضور فيزيقي؟!.

قال لنفسه ذلك، وهو يحدق في السقف، متحاشياً ضوء الوجه المبرح.. كان عالياً.. بعيداً. اختلطت في تلك اللحظة الأمور عليه.. فهذا النمط من البناء لم يألفه في البيوت الشعبية هنا لكنه رآه في الأبنية القديمة.. والكنائس والقصور الملكية:

ـ هل أنا في باطن لوحة؟!.

لكن لا هذه الأصابع الناعمة المنزلقة تجوب أنحائه العارية الغاطة في الماء جعلته يتيقن من واقعية ما يجري:

ـ كيف حدث ذلك وهو أرتاد أرخص بارٍ وأكثرها احتشاداً بالصعاليك البررة؟!..

ـ من هذه الجنية التي تدعوه ملاكاً؟!.. وأي ملاك بائس هو!.

نشفته وألبسته ثياب نوم ناعمة. قادته إلى قاعة شاسعة، عالية السقف في وسطها سرير نومٍ لم يشاهده إلا في الأفلام. كانت تحدثه وهي تصب كأساً عن خيبتها من عشاقها غير المقدرين

لجمالها ورقة عواطفها وخصوصاً العشيق الأخير الذي منحته كل ما لديها في الروح والجسد. كان ينصت وكأنه أحد ندماء شهريار في ليالي شهرزاد الألف.. بكتْ مع قصة كل عشيق من عشاقها الذي أصبح من العسير عدهم. قال مع نفسه:

- أوقعت في شباك عشتار الإسكندنافية أم ماذا؟!.

كان ينصت متعاطفاً وهو يكاد ينهد بكاءً لشدة خيبتها من المحيط ورغبة الرجل المجردة تماماً من الروح والساعية إلى إشباع الغريزة فقط. قالت:

- أسمع جربت كل شيء.. منذُ الرابعة عشر من عمري أمارس الجنس.. شبعتُ.. حتى كدتُ أن أزهد فيه.. هذا ليس حالي فقط.. بل حال كل النساء هنا.. لكن الحياة صعبة فوق ما يتخيل الإنسان. جربت أول زواج وَخَيَبني منذُ الأشهر الأولي.. عراك وصراخ أحال اليوم جحيماً إلى أن طردته.. فكما ترى ورثتُ عن أبي وأمي هذا القصر الكبير الذي يسع جيشاً.. لكنه لا يسعني في الوحدة. وجدت بالانترنيت أو تخيلتُ أنني وجدت حلاً.. فبسهولة أتمكن من أشاده علاقة مع الأخر رغم المسافات واعتقدت أن الحظ تبسّم ليّ حينما تناغمت مع أحدهم وأصبحنا عشاق بعد يومين من المراسلات الحارة. كان في مكان مجاور لمدينتي.. وبعد أشهر وجدتني لعنف الشوق واللهفة حاملاً منه.. انزعج واختفى.. مما جعلني ألعن الدنيا والحب والانترنيت والحضارة. أجهضت لأجد حالي وحيدة بعد موت أمي وأبي في هذا القصر الذي تراه بغرفه الكثيرة. أسمع أنت هبة من الله وجدتكِ في بارٍ رثٍ.. رخيص نصحتني به صديقتي بعدما يأستُ

من البارات الراقية وبشرها المقنعين!.

كان مبتهجاً وكأنه في حلمٍ.. وهو يجد نفسه مع هذه المرأة التي يتطابق عذابها مع عذابه في خلاصة المعنى.. كانت تحمد السماء لسماعها نصيحة صديقتها التي أشارت عليها بالبحث عن الكنوز وسط الأسمال، ثم صرخت :

- أرى على كتفيك جناحين.. احملني وطرْ!..

كان مذهولاً بكلامها ووجها الحاني والسقف العالي والمكان واللحظة.

- ماذا بكَ..؟!.

تجاهل سؤالها المباغت وود لو تستمر في الحديث عن عذابها الغريب رغم أنها تجاهلت الكلام عنه سوى بجملة واحدة فقط؛

- يا صعلوك ليلتي المتشرد!.

كان سعيداً بذلك التجاهل، إذ ماذا بوسعه أن يحدثها.. أو عن ماذا؟ ماذا يقول وهو مشروخ في كيانه شرخاً لا براء منه. قدرَّ أنها ترى به مثلما يرى المتدين الورع في مخيلته وجه الرحيم.. لكن ليس به شيئا مما تراه. كان مثل وحيد يشاهد فلماً في التلفاز. أحست بوضعه. قامت من جواره على الأريكة المقابلة لسرير النوم المفروش بالحرير, وراحت تلقي عنها قميص النوم الشفاف. تمنى لو تكف عن الانحدار نحو تلك البقعة المؤلمة والتي طالما ظن البشر أن في رحابها خلاصاً!، حمالة الصدر التي لا تخفي شيئاً.. اللباس الحميم. كان يحدق كمن يحدق في لوحة عارية. هبطت نحوه عرّتهُ. قبّلتهُ بأنحاءِ جسدهِ. كان يدرك

عذابها وعذابه. كان يرى زوجته حاضرة تتجلى خلف هذا الكيان العاري المبهر، تتجلى بالرغم من كل شيء في كمال عريها فتمنعهُ من الاندماج مع هذا الكيان الغريب الذي تعرَّفهُ قبل ساعة:

- يا ملاعين.. كيف لكم النوم مع نساء مختلفات!.

شتم أصدقائه القادرين على مضاجعة امرأتين مختلفتين في نفس اليوم. ومدَّ ذراعه مداعباً شيئها الحميم إلى أن تصاعد انفعالها فطفقت في الصراخ.. مما جعله يدخّل الوسطى والسبابة متلاصقين عميقاً في الجوف الرطب. فعل ذلك ملتذاً بالمشهدِ وكأنه يرى فلماً جنسياً دون هياج. وفي لحظة خاطفة فتحت عينيها فرأت نظرته المحايدة وهو يدفع بأصابعه في شيئها الحميم المبذول. تراجعت بغضب قائلة:

- هل أنت طبيب نساء؟!.

سحبتْ جسدها وانهالتْ عليه شتماً، طالبةً منه ارتداء ملابسه. ترجاها أن تهدأ قليلاً كي يتسنى له شرح الأمر لكنها هددته:

- لو تأخرت دقيقة.. سأتصل بالشرطة!.

دفعته نحو الباب، ألقته على سلالمها الهابطة إلى حديقة شاسعة مبهمة وسط الفجر المتسلل من أفق الحقول البعيد. وتاه بين حقول شاسعة باحثاً عن شارعٍ مبلط

7- في الضوء.. في الضوء

في غمرة صمت الصالة.

انبثقَ المسيحُ عارياً في الظلمةِ. اندمجنا في طقسهِ الموحشِ دونَ تعليقٍ. رأينا الخليقةَ من بدئها.. تفاحة آدم، حواء، العذابات، الكون القدسي الكامن في روح الإنسان.

احتسيتُ المزيد من الجعةِ المقدسةِ، والأنيسة رشفتْ مثلي الكثير لكن على مهلٍ.

هي المرأة الخامسة في حياتي. كففتُ عن الزواج بالورق منذُ الأولى، حبيبة صباي التي رجعت إلى العراق حال انفصالنا. أتعلق في كل تجربة بالجديدة بشّدة، أكتبُ لها أشعاراً ورسائلَ غرامٍ لا عدَّ لها، أرقصُ لها، أجعلها تضحك طوالَ الوقتِ، فأنا داعرٌ بالسليقةِ، والكلامُ النابي الخفيف لا يفارق لساني، وهذا ما تحبه النساء كل النساء

حتى اللواتي يبدينَّ متحفظات جداً في الحياةِ العامةِ. لكن يصيبني المللُ بمرورِ الأيام، فأجدني وحيداً أفضلُ الكأسَ والسهرَ وسماع الموسيقى في الصالةِ حتى انبلاج الفجر، على النوم معتنقاً الشريكة.

أتضايقُ من عناقها والتصاقها بيّ، فأزحف مُلاحَقاً حتى حافة السرير إلى أن أهرب وهي في عمق النوم متسللاً إلى أريكتي المفضلة، متجاهلاً مشاعرها إذ تحذرني عقب كل احتدام في ساحة وغى السرير الحار قائلةً:

- مو تنزلْ.. أكره ما أكره مغادرتكَ السرير بعد الوصال!.

أملأُ الكأس وأسرح مع أمكنة السونيتا غير آبه بخصام الصباح.

كنتُ غير قادرٍ على توضيح الأمر. أحاولُ شرحَ حالتي فيخرجُ صوتي متردداً واهياً لأني أخفي الجوهري فيها؛ رغبتي بالشرب وحيداً في عمقِ الليلِ وضيقي من مشاركتها سرير النوم. وبتراكم المشادات وتفرعاتها تتحول الحياة إلى جحيمٍ لا نجد خلاصاً منه إلا بالانفصالِ.

طبعاً جميعّهنَ عدا الأولى، كنّ عراقيات وعربيات مطلقات لأسباب مختلفة، ولكلٍ منهنَّ قصتها التي أسمعها مبدياً تعاطفي أول الأيام، وعدم اهتمامي لاحقاً.

قلتُ مع نفسي وأنا أقع على الخامسةِ:

- سأستقر معها..

وأصرخ حين أكون وحيداً في غابةٍ أو غرفةٍ:

- أنها الأخيرة!.

فهي مثقفة تقرأ كثيراً، بدتْ أول الأيام متفتحةً بأفكارها لكن سأكتشفها قليلاً.. قليلاً؛ متحفظةً، صارمةً، لا تمنح كيانها إلا بصعوبةٍ في الفراش، وجديةً تَتوق كي يكون كل شيء مضبوطاً، مرتباً.

الليلة وجدتها في مزاجٍ طيبٍ، فاقترحتُ أن نشربَ قليلاً ونبحث عن فلمٍ معقولٍ طامعاً في ليلةٍ من ليالي الإنس بصحبة جسدها المصبوب الصارخ والمحاصر بتحفظ تربيتها الدينية الصارمة.

اندمجتُ مع الفلمِ وليل الصالة المنارة بشموعٍ وزعناها في الأركانِ، ووجه المسيح المتدفق من الشاشةِ كنهرٍ هادئ الجريان وسط عصف المأساة القادمة من المحيط والسماء وموسيقى الفلم، فكنتُ أهبط إلى السجادةِ الوثيرةِ صارخاً من عذوبة المشهد، من عذاب روحي المشتتة بين عنف تجربتي والنساء راغباً في الذهاب مع المسيحِ إلى معناه، إلى أن أخذتُ أردد بصوتٍ خافتٍ:

- خذوني.. خذوني!.

وانتحبتُ بصمتٍ ملتفتاً إليها وقلت:

- أريد أروح إلْهُمْ!.

ضحكتْ قائلةً:

- أنكَ تعتقد بشريط سينمائي حياة!.

- لِمَ لا.. أنا أعيش حياتي مثل طائر، والله.. والله ذاك وجه المسيح!.

وأشرتُ إلى الشاشةِ، كانَ يحتل عرضها بتقاطيعهِ المسالمةِ المتأملةِ المستسلمةِ لقدرها، أكملتُ بلهجةٍ قاطعةٍ:

- ذاكَ وجه المسيح أنا.. أنا.. والله أنا.

ونهضتُ لأتمايل وسط الصالة على إيقاعِ نايٍ حزين أنبعثَ من أفقِ غروبٍ كالحٍ غَمَرَ جسد المسيح الذي ركعَ وسط أعدائه ناظراً نحو السماء. كنتُ أحس بالمسيحِ المعروضِ في الفلمِ تجسيداً لحضوري الفيزيقي، العذاب نفسه، الخسارة نفسها، السلام في روحينا نفسه، عدا أنه خالد وأنا فانٍ، وكنتُ أظن في كل تجربةٍ مع الشريكات الخمس أنهن سيدركنّ روحي ويحدّبنَ عليها حناناً وعطفاً وحباً، لكن يبدو أن الشخصيات الدرامية في الفن، سينما، رواية، مسرح، قصة، محبوبة في النصِ، مربكةً في الحياةِ. أقولُ مربكة كي أخفف من تعبير غير مفهومة، أو ثقيلة لا.. لا بأدق؛ لا تطاق.

انتهى الفلمُ وَطَعن الليلُ وبدأ فلمي الخاص، قالتْ وهي تتجه نحو السلمِ الخشبي المؤدي إلى غرفِ النومِ:

- طّفي الأضوية، وتأكدْ من قفل الأبواب قبل ما تصعد!.

كنتُ أودُ البقاء وحيداً ومواصلة الشرب وسماع Bach ، لكنني أحسستها راغبةً من نبرة صوتها، وحركة جسدها، وطريقة مشيها التي أكسبتها قصة الخليقة وتفاحة أدم إيقاعاً صارخاً وهي تضع قدمها اليمنى على درجةِ السلمِ الأولى. تريدُ.. تريدُ بشّدة رغم تعب جسدها المنهك والخارج قبل أيام من عمليةٍ طالتْ مبيضيها.

جمدتُ بمكاني أنصتُ لوقعِ خطوها الغاضب من صمتي، إذ راحتْ تضربُ خشبَ السلمِ بقوةٍ. فقلتُ لها متسائلاً:

- إذا صعدتْ.. راح تكونين معي مثلما أكون معك في كل مرة؟!.

صرتُ في بئرِ السلمِ وهي في منتصفة، توقفتْ والتفتْ نحوي متسائلةً:

- أش تقصد؟!.

قلتُ ضاحكاً لافظاً جملتي بتشديدِ ونغمِ أولادَ الشوارعِ:

- راح تتناكين... بحرارة!.

- أش لون لغة، أش لون سؤال سخيف، قبل دقائق تقول أني المسيح!.

تهالكت على الأرض ضاحكاً مردداً:

- فزّ مسيحي السافل.. فزّ.. فزّ!.

وفعلا تأكدتُ من رغبتها الليلة، وهذا شأن الشرقية عاجزة

عن التصريح إلا فيما ندر، تقول رموزاً، وأن لم يَفهم فحلها، تظل لأيام متجهمة وتنفجر غاضبة لأوهى الأسباب وكأن الدنيا أنقلب عاليها سافلها.

أطفأتُ الأضواءَ. أحكمتُ غلقَ الأبوابِ وصعدتُ خلفها. رشقني عطرها، وأي عطرٍ مدوخٍ ينبثق من مسامها عندما تكون مقبلةً. ترنحتُ جوار الغرفة، فتمسكتُ بالجدارِ حتى بلغتُ حافة إطار الباب. غمرني الضوء الأحمر الخافت المنبثق من الزاوية البعيدة. اندسست جوارها عارياً. وجدتها حارة مثل فرنٍ ملتهبٍ. تلمستُ فخذيها، صدرها، بطنها الضامرة، نهديها البضين وحلمتيها الداكنتين المنتصبتين، وتلقفتُ شفتيها المكتنزتين، بينما راحت كفيَّ تعبث بردفيها الثقيلين المتماسكين، تملصتْ قليلا وقالت:

- طّفي الضوه!.

قلت لها وأنا أفحّ كحيوانٍ بدائي:

- لا.. لا.. بالضوه.. أثنينهم يردون بالضوه.. أثنينهم المسيح الشريف والسافل!.

- ما أريد بالضوه.. ما أريد!.

- لا.. لا.. بالضوه!.

تجلتْ، وتجليتُ. صرتُ طفلاً أرضع تارةً، وفي أخرى أعض. أصرّتْ على الظلامِ، فأطفأتُ الضوء وغرقتُ في العتمة وفي تكوينها المتقلب الذي أظّهرهُ بجسدي وأصابعي، وحركة جسدها الصاعد.. النازل، المقبل.. المدبر والمتشبث بجسدي مثل

غريق في موجٍ عاتٍ وسط اليّم إلى أن فاضت روحينا فصعدنا إلى ذروةِ الكونِ صارخينَ وكأننا سنموتُ في اللحظةِ التاليةِ قبل أن ننفصل ساكنين.

الليلة أخذتْ ذراعي القريب وجعلتها وسادةً تحت عنقها، صرت سجيناً، يقظاً، أرقاً، كلما حاولتُ الانسلالِ تشبثتْ بيّ، ولم أتمكن من مغادرة السرير إلا مع خيوط الفجر الفضية التي انتشرت في سماء نافذة سقف الغرفة المائل.

أية بهجة تجعلني أرفُ مثل طائرٍ وأنا أنزل السلالم إلى الكأس والفجر والصالة والصمت الذي سيضج بعد لحظاتٍ بصخب العصافير، أية غبطة فريدة جعلتني أردد منشياً ولا لحظة الذروة:

ألا فاسقِني خمراً، وقل لي: هيَ الخمرُ،

ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ

فما العيْشُ إلاّ سكرَةٌ بعد سكرةٍ،

فإن طال هذا عندَهُ قَصُرَ الدهرُ*

* * *

رجعتُ اليوم متأخراً، كنت في لقاء بأصدقاء أدباء. سهرنا حتى منتصف الليل في الهواء الطلق أمام مجرى قنوات كوبنهاجن. لم نكف عن الضحكِ، والنكاتِ، والشعر والغناء فالصيف حلّ مباغتاً طيباً. أخرجتُ المفتاح حالماً بجسدها الحار ومباهجه، لم أكن مخموراً، فكالعادة أبقي قواي كي أستطيع

التلاحم والتوهج وأكملُ سكري بعد انفضاض الملحمة، لكن المفتاح لا يدخل في بيته.

حاولت مرة أخرى:

- غير معقول!.

قلت مع نفسي وحاولت دون جدوى.

- أبدلتهُ.. أبدلتهُ.. كالسابقات!.

ووقفت لحظة أفكر في أي ملجأ أقضي ليلتي!.

27-5-2016 - كوبنهاجن

8- جُمهورٌ، وما أبقى هنا

وتطوير الثورة العالمية!

لا أتذكر بالضبط، اللحظة التي فيها تعرفتُ عليه. ما جذبني تلك البسمة المضمرة المرسومة على قسماته المعجونة بالفحم عجناً تشاركت به شمس جنوب العراق والويسكي المغشوش المباع سراً في زمن ديمقراطية الطوائف. بسمة وشت لي بعالم "جمهور" الذي سأكتشفه يوما بعد يوم طوال فترة وجودي في

المدينة. تبحرتُ في قسماته رائياً خلف أنفه المكسور في نقطة ما بين العينين وبعض الآثار الأخرى الموزعة على الوجه والعنق تاريخاً شخصياً عنيفاً. هكذا ظننت أول وهله، لكن سأكتشف لاحقا أنه من أكثر العراقيين ميلاً إلى التسامح والود. لم أره وسوف لا أراه يوما دون ربطة عنق حمراء معقودة على قميص أبيض يظهر من حافتي سترة قاط أسود نظيف. سيظل يرشقني بعينين حمراوين باسمتين طول السنتين اللاحقتين، قبل أن يهمس:

- أهلا أستاذ!.

بصوت خافت أطفأه الدخان. لم يكف عن نعتي بالأستاذ رغم رجائي المتكرر كي يكف عن ذلك، إذ سيتحول لقاءنا يوميا، لا بل نلتقي في الظهيرة مرةً وفي المساء أخرى. أتذكر الحديث الأول الذي تبادلناه وكان فاتحة العلاقة إذ سيخبرني أنه يعرف أخي الشهيد الشيوعي "كفاح" الذي يصغرني بثلاثة أعوام وكان يلتقي به في فترة اختفائه في بغداد 1978 - 1980 وقال أيضا بأنه صديق جارنا "حيدر منسي القانع" الذي هو الآخر كان عسكريا وأعتقل في نزلٍ بزقاق من أزقة - الحيدر خانه - وسط بغداد في تلك الأعوام، إذ كان يشاركه السكن شيوعي مختفي. "جمهور" في ذلك الوقت يخدم العسكرية ويلتقي بـ "حيدر" الذي سيضيع في أقبيتهم لِيُبَلغ أهله عن إعدامه بعد سنين ثلاث. هذا مفتاح علاقتنا الأول. طلب مني المرور على محله، فأدمنت ذلك في الأيام اللاحقة، إذ بِتُّ أمر عليه كلما خرجت في جولتي اليومية في أسواق الديوانية. المحل عبارة عن غرفة صغيرة جدا ثلاث أمتار × مترين ونصف، قديمة، سقفها خفيض، بابها

حديدي خفيض أيضاً، مفتوح طوال الوقت على منضدة حديدية قديمة صغيرة موضوع عليها دفتر قديم إلى جواره قلم جاف وحاسبة يدوية صغيرة عدة "جمهور" لبيع أطنان الحديد الملقاة حزماً طويلة في الشارع جوار سياج مدرسة الزهراء الابتدائية المقابلة، وسياج دائرة البيطرة القديم المجاور. أول مرة أدخل فيها فسحته الضيقة جذبتني الصور وصحون بلور معلقة على الحائط خلف منضدة المكتب. صورة كبيرة لماركس بلحيته الشيباء بالأسود والأبيض، إلى جوارها الزعيم عبد الكريم قاسم منقوش بالألوان على صحن من الفرفوري بزيه العسكري ونياشينه وبسمته، وإلى جواره "جمهور" و " تشي جيفارا" منقوشين بالألوان على صحن أبيض كبير وكل منهما يرتدي قبعته. "تشي" بقبعته الشهيرة، و "جمهور بواحدة بيضاء تضفي على فحم قسماته وبسمته المضمرة مزيدا من الوضوح. وفي الركن علق صورة "فالح عبد حاچم" لاعب كرة القدم، وهو أسطورة من أساطير الديوانية الرياضية، إذ لعب بالمنتخب العراقي أوائل سبعينيات القرن الماضي وأحرز ثلاثة أهداف على منتخب ألمانيا الشرقية في مباراة فاز بها العراق بنفس النتيجة، فملك قلوب العراقيين وصار في الديوانية رمزا وأسطورة. في الجدار المقابل للكراسي علقت صورة "فهد" مؤسس الحزب الشيوعي العراقي بوجهه الصارم المُذْكِر بالفترة الستالينية من حقبة حكم الأحزاب الشيوعية في أوربا الشرقية، وتحتها خُطَ – الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من أعواد المشانق -. "جمهور" يجلس خلف مكتبه يتفرج على التلفزيون الصغير المعلق جوار الباب. لم يتكلم عن نفسه، بل كان يبدي

في كل لقاء تذمره من الأوضاع واختلاف أخلاق البشر وتفشي الكذب وعدم الأمانة وبيع الأخوة والصداقة مضاف لطامة الأحزاب الدينية التي تزيد في تجهيل الناس، كان يختم شكواه قائلاً:

- ما أبقه .. سأسافر!.

وحينما أسأله إلى أين؟، لا يبدي جوابا. به رغبة بالعيش حياة أخرى، في مكان أخر، لكنه لا يعرف أين وأنا أشكو له من جفاف حياة المنفى وشدة العزلة والوحدة، فيجيب:

- أنا وحيد لا زوجه، ولا أطفال، الشيء الوحيد الذي يربطني بالديوانية والعراق هي أمي!.

فأعلق ضاحكاً:

- والنضال والطبقة العاملة وفهد وجيفارا وماركس وعبد الكريم قاسم اللي يستقبلوك ويودعوك كل يوم!.

فيتبسم قائلا:

- أسولفلك هذي الطريفة!. شفت العمال اللي ينقلون الحديد، في يوم سألني واحد؛ عمي هذا السيد يقصد "ماركس" شو ما لابس عمامة، قلت له: عمي السيد توه طلع من الحمام!.

جمّعتُ قصصاً عن تاريخ "جمهور"، فَعلمتُ أن له ذهناً تجارياً وحساً في السوق أهله للقيام بالعديد من المشاريع، وأهمها كما يشاع مشروعه مع – حبيب ظاهر – الذي أتفق معه على أن المال منه والأفكار من "جمهور" والوارد يقّسم مناصفةً لكن حينما تطور المشروع حاول أن يجعل "جمهوراً" عاملاً لديهِ

بأجرٍ، مما جعل "جمهور" يذهب حافياً إلى ضريح الأمام "علي بن أبي طالب" في النجف كي يشكوه . وهذه الرواية حاولتُ من خلال علاقتي اليومية به معرفة مدى دقتها، لكن أمتنع عن التعلق عليها لا سلبا ولا إيجاباً، وحينما سألته مباشرة. أمعن في رفضه قائلاً:

- هذا ماضي، ما كو داعي إنْبْشَه!.

كان ينصح المشتري بالانتظار حينما يعلم أن سعر الحديد سينخفض غداً وحينما سألته؛ لِمَ تفعل ذلك؟. أجابني: بأن الناس مساكين تتقطع أنفاسهم ويهلكون حتى يبنون بيتا، وهوَ أني عندي شِيْ غير الناس. جميع من في السوق والمدينة يثق بكلمته من ناحية جودة البضاعة وسعرها. لكنه بمقدار ما يحب هؤلاء الناس بمقدار ما ينفر من تغير أحوالهم وأخلاقهم مادة شكواه طوال الوقت.

يوماً بعد يوم يتكشف لي نقاء هذا الإنسان.

صار مدار يومي في الديوانية يبدأ من دكانه صباحاً، ثم الدوران في سوق التجار، متنقلاً بين دكان حمود الخياط، قاسم الدعمي الخياط، كريم بائع الأحذية، محمد القصاب، حسين بائع الجبن، المكتبات، مقهى الراية، ومقاه صغيرة بين أزقته المسقوفة، مقهى البصراوي المكونة من قنفة واحدة أقضى عليها وقت ما بعد أذان الظهر في تصفح الصحف الصادرة في اليوم ليحط في المساء على ساحل "جمهور". فبعد إغلاق مكتبه يأتيني إلى مقهى الراية لنمشي على ضفة الشط صعودا حتى كازينو "علي الكردي" منشغلين بأوجاع الناس.

أتصل بي مساء أحدى الأيام مخموراً وأخبرني بأنه أكتشف خطأ في تعاليم الثورة العالمية يحتاج إلى تصحيح. وبدأ بتسجيل ملاحظات ستضعها في المسار الصحيح، ويرجو مني مساعدته في صياغة تلك الأفكار باعتباري كاتباً. أفكاره سوف تجعل الإنسان يفكر بأخيه الإنسان. وعندما سألته عن ماهية هذه الأفكار؟!، أجابني بكلام غامض وجمل غير مترابطة لم أفهم منها كلمة واحدة. ظلَّ يتصل مشغولاً بالأمرِ لأكثر من أسبوعين، لكن في الصباح لا يعود إلى الموضوع أبداً، فأيقنت أنه لا يتذكر شيئاً من حديثِ الليلِ.

أما قصة بحثنا مساءاً عن باعة خمر سريين ينتشرون في أرجاء المدينة بعد منعه، فهي من أمتع القصص؛ تبدأ مع حلول الظلام بتلفوناته ومواعيد لا يأتي البائع فيها غالباً، فندور في أرجاء المدينة، نقرع أبواباً في عتمة أزقة نعودُ منها خائبين وشعور بمتعة خارقة ينتابني طوال ساعات البحث والانتظار التي تستمر أحياناً ساعات؛ متعة تفوق متعة الشرب نفسها. كان فيها يلعن الشرب مرددا:

- شِيْ سخيف، يلعب النفس، لكن أش لون واحد يتحمل الحياة بهذي الأوضاع دون أن يخّدر رأسه!.

بشق الأنفس نحصل على الشرب، لنحتار في المكان الذي نشرب فيه. شربنا مرتين في مكتبه الضيق على ضوء شمعه، فالتيار الكهربائي ينقطع عن السوق ليلاً. لم نرتح إذ شعرنا بالوحشة والكآبة وظلال ماركس وفهد وعبد الكريم قاسم وتشي تخيم علينا فتوهمنا للحظات بدنو حلم المدينة الفاضلة ناسين قبح

الواقع مما يولد مزيدا من الوهم والخيبة، فكففنا دون كلام. في يوم اقترحت عليه أن نشرب في الكازينو، فرشقني بنظرة دهشة قائلا:

- أش لون والناس، عيب مو أحنه معروفين!.

قلت:

- ولا يهمك سأدبر الأمر دون أن يشعر أحدٌ.

أخفيت قنينة في حقيبتي الجلدية. حملنا كرسيين عابرين ساحة الرواد المكتظة إلى الممر الترابي المظلم المشرف على مجرى النهر. وجعلنا ندير الويسكي في علبة السفن آب بعد أفراغ نصفها.، أما المزة فمن بائع باقلاء وحمص مسلوق داخل الكازينوا نفسها. كنا نغرق بالضحكِ فيعلقْ :

- والله أحلى شرب وسط الناس وهواء الشط المنعش، والله عندك أفكار!.

شربنا بهذه الطريقة أياماً. كان الجالس خلف منضدة الدَخّلْ يتفحصنا حينما ندفع ملاحظاً هيئتنا التي اختلفت كثيراً، نخرج منتشيين صاخبين نتمازح معه بالعكس تماما من جدية هيأتنا عند الدخول.

في بحر النهار يأتني أحيانا مهموماً، في مشاريع صغيرة لمساعدة الأصدقاء المرضى والمحتاجين لاعناً السلطات التي لا توفر خبزاً لمواطنيها في بلد يعوم على بحر من النفط، تعبيره الأثير في وصف العراق. جمع في زيارتي الأخيرة خمسة ملايين دينار لعلاج "فاضل شعلان" المصاب بالسرطان. ليس

الأصدقاء فحسب، بل حتى الفقراء ممن لا يعرفهم، ففي الأوقات التي أكون فيها في مكتبه تأتي نساء يبدو عليهن الفقر الشديد يقفن في الباب، فيترك المكتب ويعود بعد دقائق. أخبرني لاحقاً أنهن أرامل ليس لديهن مصدر عيش؛ وعندما قلت له:

- ستتعب، لا تستطع وحدك حلّ المشكلة، الأمر يتعلق بالنظام الاجتماعي!.

أجابني:

- ما أگدر.. أدري ما أحل مشكلة الفقر، لكن بالصدفة أتعرّف على وضع أرملة أو فقيرة فأني وسط السوق .. ما أگدر أساعد حسب إمكانيتي.

أصطحب في يوم الروائي العراقي "علي عبد العال" إلى مقر الحزب الشيوعي في المدينة وأقترح المشاركة في شراء براد ماء للمقر بعد أن قدموا لهم ماءًا ساخنا في عزّ الصيف، وفعلاً وصلهم البراد بعد ساعات.

أما قصصه عندما حلَّ بدمشق سنوات الحصار قبيل الاحتلال فقد كان يرويها ويعيد روايتها؛ عن صديقته المسيحية التي عشقته عشقاً مجنوناً واشترطت عليه أن يعيش معها وأمها ويبقى في الشام. لم يتمكن، فخسر فرصته الذهبية في الزواج، مختتما القصة بجملة قاطعة:

- يعني أش لون أعيش بالشام .. والعراق!. ما أگدر ما أگدر

أعلق ضاحكاً:

- قبل ساعة تگول ما أظل بالعراق!..

فيتبسم قائلا:

- والله حيرة .. حيرة.

وغيرها من القصص التي تتعلق بكفاحه وهو يبيع الأغراض وسط الشارع كي يكسب قوته ومشاركته الفعالة في ترويج جريدة "طريق الشعب" وعن ضابط المخابرات السوري الذي أستوقفه ليلا في ساعة متأخرة والذي راق له حديث "جمهور" عن الدكتاتور والحرية فأخذه في سيارته ليدخل به ماخوراً ليلياً مكتظاً بالجميلات، عن أطايب الأكل والرقص وتفاصيل تشبه ما في ليالي الألف ليلة. وعن .. وعن .. حكايات يمتزج فيها الحلم باليقظة، الخيال في الواقع. شيء أصدقه وأنفعل به وأنا أتتبع حبكة هذه القصص والحكايات المتينة والمقنعة. لا أدري مدى صدقها لكنني لم أشكك بها أبداً، ففي تفاصيل الحياة اليومية لم يكذب أبداً في أي شأن، صغير أو كبير. كان يتصرف على سجيته وفي حركته خبرة وفهم عميق لمجتمع المدينة وإنسانها.

ولما كان يعاني من الوحدة، رغم تشعب علاقاته، طلبت منه أن يصطحب صديقاً أخر يعاني من الوحدة أيضاً لكن لأسباب مختلفة، فالأخير خسر المدينة وأهلها في السنوات الخمسة والعشرين التي كنتُ فيها في المنفى. والأسباب ليس مجالها. رتبت لقاءًا مشتركا مساء كل يوم في مقهى الراية وسط المدينة، لنتوجه مشياً حتى مقاهي "أم الخيل" على أمل أن يجد صاحبي المريض متنفساً ساعاتٍ من الليل في حالة سفري. في أول لقاء جمعنا في شقة صاحبي المتقاعد الذي جاوز الخامسة والستين والمجنون بالنساء. روى لنا كيف تمكن من الحصول على امرأة

من السوق. صادها في تسكعه اليومي ونجح في استدراجها إلى شقته وما فعله بها، واصفاً كيف كان يتمسك بكل جزء فيها يقبله ويهذي شعراً حتى أنها راحت تصرخ فرط اللذة، فقاطعته متسائلا:

- دَبْرْتها؟!.

فأجاب:

- يعني أتحرك شويه مثل واحد توه گعد من النوم وما بيه حيل!.

فنب "جمهور" معلقاً بجملة جعلتنا نسقط أرضا من الضحك:

- حبيبي گول سُحاق!.

والتعليق الذكي المباغت سمة من سمات شخصيته التي تبدو من الخارج جدية وحزينة.

ظل يلازم صديقي إلى أن أخبرني يوما بأن صاحبي صعب العشرة فهو يلازم الصمت والشرود مختتما كلامه:

- أني شارد من الكآبة يا سلام إدْورْ أصاحب واحد عبارة عن كآبه .. لا.. لا.. أرجوك بعد ما أگدر أگعد وحدي أحسن ليّ!.

اتصلت البارحة بـه فأخبرني بأنه الآن يجلس في نادي إتحاد الأدباء، ويشرب كأساً في صحتي. "جمهور" يهرب إلى بغداد في الشهر مرة والسبب كما أخبرني:

- حتى أتنفس يومين من تعب العمل وقبح البشر اللي تكذب مثل ما تتنفس!.

9- اليوم قتلوا قطي

أكتب الآن وأبني عاود البكاء في غرفة نومـه بالطـابق الثاني!.

نزلت تواً من جواره.

تركته على سريره مستلقياً على بطنه، غامداً رأسه بوسادته كي يخنق نشيجه المذبوح.

أبـني ابـن الثانيـة عشـرة ولِـد هنـا في مدينـة Roskilde

الدنمركية. عراقي أسمر، حار، كرغيف خبز.

قبل ساعة عاد من المدرسة مرتبكاً وسألني:

ـ ماذا جرى لـ ketti؟!.

لم أخبره بالحقيقة عندما اتصلت به قبل نصف ساعة بالتلفون. فالبارحة قرعت بنت جارتنا الصغيرة الباب وقالت:

ـ اتصلوا بطبيب الحيوانات!.

سألتها:

ـ لماذا؟.

قالت:

ـ قطكم هناك!.

خمنت أن شيئاً جرى له. وانتبهت أنه لم يرجع في المساء لتناول العشاء كعادته كل ليلة. أرتجف كياني وكأنني موشك على السقوط بذلك الشعور القديم الذي عذبني في العراق حيث كنت أشعر بأن كل حبيب قريب مشروع فقدان. شعور هجرني ما أن حللت بالدنمرك قبل أكثر من عشر سنوات.. لكنه عاد بشدة ليل البارحة وجعلني أسهر مقلباً شؤون علاقتي بالقط الأحمر الكثيف الشعر الوديع. عندما جلبوه من بيت ريفي يبعد كيلومترين عن مسكننا كنتُ في الشام مسافراً صيف 1997 كي أتسلل إلى كردستان لجلب أبننا الكبير الذي تركناه في الديوانية عند هروبنا إلى الجبال عام 1985. وجدته في البيت. ويوما.. بعد آخر صار أقرب إليَّ من الجميع. فالكل يذهب منذ بكرة الصباح إلى المدرسة والعمل إلاي، فأنا متقاعد بسبب

التلف الذي أصاب رئتيّ في قصف بقنابل الغاز في الجبل. أنظف أواني طعامه وشرابه. أبدل الماء وأصب له الأكل وأبدل رمل الحوض الذي يتغوط فيه. وكان قطاً عجيباً. لا أدري من علمه فن القبلة. كان لا يستطيع يوماً دون أن يقف على قائمتيه الخلفيتين، فارداً قائمتيه الأماميتين حول رقبتي ليمسح بوزه بأسفل حنكي مطلقاً مواءً خافتا لا يسمعه سواي. وكان شجاعاً يجوب في الليل ويقاتل من اجل قططه إلى أن جاءنا في صبيحة يومٍ نازف الوجه. فذهبنا به إلى الطبيب فعالجه ونصحنا بخصيه كي يصبح مسالما لا يدخل عراكاً وفعلنا ذلك فأصبح رابعنا في البيت بعد أن غادرنا أبننا الكبير إلى مسكن مستقل. عندما سافرت زوجتي إلى العراق قبل سبعة أشهر أوصيتها أن لا تذكر المبلغ الذي دفعناه من أجل علاج قطنا لأن ذلك سوف يستفز أهلنا إذ جاوز الأربعمائة دولار دفعناها بصعوبة. يوقظني كل صباح. يدفع باب غرفة نومنا. يصعد السرير. يزيح الغطاء ويبدأ في مسح بوزه بحنكي وخدي وبين الحين والحين يلصق شفتيه الرطبتين على بشرتي. كانت أنفاسه تشعرني بألفة أفتقدها كل يوم من اقرب الناس هنا في المنفى. وطوال اليوم يجلس على أريكة الصالة ساكنا يقلب جسده ليستلقي على ظهره منتظراً أصابعي وهي تداعبه. سبع سنوات مرت معه. كان يملأ فراغ البيت وقت ذهاب طفليَّ إلى المدرسة وأمهم إلى العمل. يموء إذا أراد الخروج بنزهة فأفتح له الباب. ويقف فوق تطليعة النافذة التي أكون جالسا قربها كي أراه وأفتح له الباب ليدخل. طقس يتكرر أكثر من عشر مرات في اليوم. وجدت نفسي ليلة البارحة مقبلاً على الفقدان. خمنت ذلك فعببت نصف قنينة

ويسكي لأسقط في نومٍ لا أحلام وكوابيس فيه. أيقظتني زوجتي قائلة:

ـ قم.. الساعة جاوزت السابعة!

هببت من رقدتي ونزلت فورا لأعد الفطور وسندويشات الغداء لهم. هيأت كل شيء وكنت أستعجل خروجهم كي أرجع إلى السرير فلم أزل دائخا من سكرة الأمس وقلقه. أوصيت ابنتي بالاتصال بطبيب الحيوانات لمعرفة ما جرى لقطنا. خلدت إلى السرير في غرفة نومنا بالطابق الثاني واضعا سماعة التلفون المنقول جواري على منضدة متحركة صغيرة وكأنني كنت واثقا من أن ثمة من سيتصل بيّ أثناء نومي. وفعلا أيقظني رنين الهاتف. وعندما رفعت السماعة وجدت أن رجل شرطة على الخط يطلب مني الاتصال بطبيب حيوانات المدينة وأملى علي رقماً. ضربت الرقم متوجساً فسألني الطبيب عن عنوان بيتنا لأن لقطنا رقم وشموه به عندما خصوه وسجلاً يشبه سجل الأحوال الشخصية عندنا في العراق. أجبته بصحة ما يقول، فأخبرني بأن قطنا ضربته سيارة وهو لديهم بين الموت والحياة. لم يفحصه بعد في انتظار موافقتنا والأمر يتعلق طبعاً بفاتورة الفحص والعلاج فإذا وافقنا فسوف يبدأ الفحص. سألته أولا: هل ثمة أمل. فأجاب: لا أستطيع أخبارك إلا بعد الفحص عن جدوى العملية إذ فيه كسور كثيرة. فما كان أمامي إلا سؤاله عن قيمة الفحص والعملية، فأجاب أن الفحص وحده بـ 1500 كرونة أي ما يفوق الـ 200 دولار. أما العملية فيما لو وجدوا أن ثمة أملاً فتكلف وحدها 6000 كرونة أي ما يقارب الـ 1000 دولار. قلت له: المبلغ كبير سأتباحث مع زوجتي وكما تعلم لدينا اقتصاد

شهري قد لا يحتمل مثل هذه التكاليف المفاجأة. رفعت سماعة الهاتف وضربت رقم عملها جاءني صوتها ناعماً ودوداً حال سـماعها. أخبرتهـا. قالت:

- لِمَ لم تحسم الأمر!.

- لا أريد التصرف وحدي!.

تعللت بذلك، وهي على حق فمن المستحيل علينا دفع مثل هذا المبلغ، لكنني كنت أريد الخلاص من ذنب إعطاء الطبيب إشارة قتله، وكنت أتأمل أنها قد تستلف كما تفعل عادة من أجل إنقاذه. اتصلت بيّ بعد نصف ساعة لتخبرني أنها رتبت كل شيء. أي رتبت إجراءات الإجهاز على قطنا المسكين. قلت لها: هل معنى ذلك أنهم سيقتلونه هذا اليوم. قالت: نعم. قلت لها: ماذا أقول للأولاد قد يتصلان بالطبيب حال خروجهما من المدرسة؟!. قالت: أتصل بهم حال خروجهم وقل لهم وضعه خطر لذا قتلوه رحمة. ارتبكت وطلبت منها أن تتصل بالطبيب كي يخبرهما في حالة اتصالهما في الفرصة بين الدروس ردت بضيق: كفى لا تشغلني بالتفاصيل فلدي عملٌ. صمتت ثواني ثم أضافت بصوت مرتجف:

- أخف كل شيء عنه في البيت.. أواني أكله وشربه. وحوض الفضلات!

أوشكتْ على البكاء وأغلقتْ الخط.

جلست طوال الصباح أنتظر الساعة تشير إلى الثانية إلا

عشرين دقيقة كي أخابر ولديّ حتى لا يتصلا بطبيب الحيوانات كما أوصيتهما قبيل الخروج في الصباح. بقيت مشلولا. لم استطع الكتابة. أغادر كرسيَّ قبالة شاشة الكمبيوتر لأروح وأجيء في المسافة بين الصالة وغرفة الأكل والمطبخ المفتوحة. أستعيد خلالها كل فعل صدر من قطنا الموشك على الموت الآن في مكانٍ ما من المدينة. أستعيد لاعناً الفقر.. فهو السبب في كل المآسي فلو كنا أثرياء لما أشرنا على الطبيب بقتل قطنا المسكين المتألم منذ البارحة في مشفى الحيوانات. ولما كنت مشرَّباً بكل ما يمت للمدن الفاضلة من معاني وجدتني أبرك في قاع العجز.. لاعناً كل ثري.. وهابطاً إلى قاع أولئك البشر المسحوقين الذين يموتون كمداً أو تموت قلوبهم وتصبح حجراً وهم يشاهدون فلذات أكبادهم تضمحل وتموت جوعاً ومرضا في أفريقيا وفلسطين والعراق أو في أية بقعة بائسة على الأرض. وجدتني ضعيفاً أوشك على الانهيار كلما تخيلت لحظة الإجهاز على قطنا وكأنني لم أرَ عشرات الجنود في جبهة الحرب مع إيران وعشرات الثوار في الجبل يموتون تحت ناظري.. وبيدي ألقيت الحجر على أجسادهم الحارة والتي قضت لتوها في القصف. ما أن بلغت الساعة الثانية إلا ثلثاً حتى ضربت رقم أبني الصغير. باشرني دون أن يلقي التحية عما صار بقطنا. أمرته بالعودة وبأن لا يتصل بالطبيب فأمه رتبت كل شيء. وكي أخفف قليلا من هول الخبر. قلت له: إذا تعرف أحدا لدية قطط حديثة الولادة فأجلب لنا واحدة.. رد على الفور: ماتَ!. قلت متلعثما: لا.. لا أدري لما تجيء سأخبرك. دخل بصخب. ألقى حقيبته على منضدة الطعام وقال:

ـ ماذا جرى لـ Ketti ؟

ـ ضربته سيارة وحالته خطرة

ـ يقتلوه

ـ نعم!.

قلتها وكأنني أتجرع السم.. فما أقوله حقيقة محرّفة.

ركض صوب السلم. نهب درجاته. أغلق باب غرفته بعنف. وبعد ثوان تصاعد نحيبه. هرعت نحو السلم. تسلقته وجدته يستلقي على بطنه غامداً وجهه بالوسادة ينتحب بألم. جلست جواره على حافة السرير وبدلا من مواساته وجدتني أنفجر بنحيب مذبوح مصحوب بهذيان عن قطنا.. وحنانه.. كيف يسمع الكلام ويطيع الأمر.. ويواسي يومي القاحل في وحشتي ووحدتي طوال النهار حتى انه يتضايق من طوال جلوسي أمام الكمبيوتر. فيصعد إلى حضني. ويقف على قائميه الخلفيين منتصبا فارداً قائميه الأماميين على كتفيّ ويبدأ بمسح فمه في خدي وعنقي مصدراً صوتا حنونا أسمعه الآن.. تفاجأ أبني بانهياري فكف عن البكاء وراح يواسيني، ثم هرع إلى ألبوم صوره أخرج صورة قطنا. وضعها بين يدي. كان يعتقد انه يساعدني لكن الصورة أدخلني في موجة عنيفة من البكاء. ودون شعور نزلت السلالم. ارتديت معطفي والحذاء وقبل أن أفتح باب البيت قال أبني:

ـ إلى أين؟.

ـ نزهة في الحقول.

ضعت في الحقول حتى المساء أنشج واصرخ وأنادي قطي المسكين.

26-11-2004

10- أحلام سكير منفي

وجهكِ المأمول حجتنا

تدلهت بك دون معنى..وأنت كذلك.. وإلا ماذا تتأملين مني.. أنا المجنون.

أموت بالتدله بلا معنى.. بلا تأمل عقلي. لمست فيك يا حلوتي كل هذا. لسنا سوى صعلوكين يلبسان بزة الرزانة والعقل!. وإلا ما معنى هذا الانجذاب المجنون؟!.

ما دفعني إليك أيتها العذبة الجميلة، هو إحساس دفين بأنك قرينتي في القلق، وسعيك نحو محبة خالصة، لا تبحث عن معنى ظاهر بمقدار ما تبحث عن غاية غامضة.. مجهولة تجعل من الذات مضطربة، متحركة، مشتعلة لا تعرف السكون.

روحك الغامضة تهدأ وتسترخي في حضوري مترسبة في غور متعة أبدية في خطفة عمرٍ لاهثٍ نكتنز منه لذة اللحظة الهاربة القريبة البعيدة.

ما دفعك للتعلق بيّ يا ملاكي الدافع نفسه.. العميق.. العميق.. العميق عمق لا تشي به سوى الأشجار بمطلقها الذي يبدو شديد البساطة، فهي تمنح دون سؤال، تمنح الثمر والظل والبهاء دون مقابل ظاهر، لكنها في الأعمق.. الأعمق.. لمتأمل مجنون مثلي ومثلك.. ينبعث السؤال:

ـ لم تفعل الأشجار هذا؟!.

فأصرخ:

ـ لذة المنح.. محبة خالصة ليس إلا، تدركها بصمت وتسرّ بها لليالي والنسيم!.

وأنا بك شجرة.. ليس لدي ما أقدمه لك سوى روحي المُحِبة!.

ما دفعني ودفعك.. ليس إلا هذا الغامض، اللا مفهوم إلا بالاستعانة بهذا التجريد الفلسفي الأكثر عمقا.. الأكثر بساطة.. الأكثر.. الأكثر.. المخفي في خضم هذي الالتباسات الاجتماعية، والمعاني الزائفة لظاهر الكينونة البشرية.. يا سري الأعظم.. مثل سكير.. أنا أعرف بعمق ما يعنيه السكر.. لأنني كنته في

الماضي القريب ومازلت أتأرجح على حافته بين الحين والحين..

لم أسألك عن أسرارك.. عن شؤونك كثيرا، فشأنك المعذب هو ذات شأني المعذب، وظلال حزنك الخفي وَجَدَ في لقائي استرخاءه شاردة ذكرني بأحلامي الخفية وأستثار أخيلتي التي كادت تتعطل في خضم حياتي الرتيبة.. السقيمة.

فماذا تريدين أن تفضي به؟

أتريدين القول إن الدنيا قد أنهكتكِ.. إن العلاقات والروابط قد أتعبتك.. أن البحث عن الآخر قد أذاقك من التجربة مرها، ومن العذاب أقساه، ومن الوحدة وحشتها، أتريدين أن تفضي لي بكل هذا؟.. أتريدين أن تقولي.. لا معنى للكينونة ولا جدوى منها عندما تخيب الروح.. أتريدين أن تقولي لي إنك حزينة، خائرة، تقاومين نفسك كي تُظهرَ فرحاً زائفا بحضور الآخرين.. أتريدين أن تقولي.. إنك.. وإنك

أنا أعرفك.. أخمن كل ما تضمره روحك المعذبة من أسرار.. فلدي مثلها.. ألم أقل لك بأنني عشت بتوازن خير كاد يؤدي بحياتي، شر كاد يؤدي بها أيضا؟!.

يبدو أنك لم تفهمي مغزى جملتي!.

فماذا أقول؟

أقول لك.. أهمس.. أنا كونٌ يحتويك دون حاجة لكلام. أنا كونٌ شاسع معذب، عذابك الجميل في شساعته مثل لؤلؤة بعقد فريد لذا لم أسألك شيئا، ولا أريد سماع أي شيء عن صاحبٍ لكِ

يضع كل مساء باقةِ وردٍ على باب شقتك مع بطاقة غزل حكيتِ لي عنه في المقهى، وفي تلفوننا الأخير.. فهذا صاحبك مالك محل البيتزا مسكين سيضيع بعالم ليس باستطاعته أن يحتويه، بل سيورثه المرض وتتحول مشاعر حبه لك إلى نقمة فيورثك العذاب إلا إذا استسلمت للرتابة وانطفأ وهجك المشع الباهر، ثم أنك لو أصغيتِ لصوت أعماقك البعيدة.. البعيدة لقارنتْ روحك في صفائها بين لحظاتي ولحظاته عندما نجلس متقابلين في المقاهي المكتظة ونحلم.. وجهي الغارق في الغبطة يحملق فيك حالما عابدا ملكا فقيرا غنيا مجنونا رزينا أحمق. أخلد إزاءك سكران، لا أصحو إلا على صوتك وهو ينبهني على تأخري عن البيت.. هذهِ لحظاتي معك!. كيف لك نسيانها وأنت تريدين العيش مع صاحب محل بيتزا.. كيف لنا نسيانها لو تفارقنا!.

ذراعاي مفتوحان بانتظارك..

احتويتك بكل ذنوبك.. وأنا فيك بكل ذنوبي

أليس هذا الجنون بعينه؟!.

أتعرفين يا نديمتي متى ضاعت روحي؟!.

أراك تستعجلين.. انتظري قليلا سوف أخبرك..

في المقهى.. في الطابق الثاني لمستها تنسل مني وتضيع وأنت تتكئين على مسند كرسيك، تفصل بيننا طاولة قصيرة القوائم يظهر عبرها حوضك وقميصك الأخضر الضيق من أسفل البطن وحتى نهديك المتكورين الصلبين الضائقين بعشب القميص.. في اللحظة تلك أحسست بضياعها وأنا أهبط معك إلى

طفولتك البعيدة وأنت تسردين لي قصة عنّت على ذاكرتك بغتة وليس لها علاقة بما كنا نتحدث فيه.. قصة أخذتني إليك إلى تلك الناحية في بغداد.. حي المأمون الذي كنت أمرّ عليه كل يوم في أوائل السبعينات عندما كنت طالبا.. كنت أحدق في أضواء شبابيك البيوت ليلا متخيلا بشرها حالما بالخلود إليها من وحشة لازمتني كل العمر.. نفس الوحشة التي شعرت بها في بيتي هذه الأيام ودفعتني نحوك مستسلما وكأنني أعشق أول مرة في عمري.. كنت خلف أحد النوافذ إذن أحلم بأنفاسك في طريق عودتي إلى القسم الداخلي.. أحلم بوقع خطاك وأنت تخلدين إلى سريرك كنت أحلم هكذا كل ليلة.. مخدرا بالخمر وما أسمعه وقتها من أصدقائي الشعراء والكتاب الذين كنت أقضي سهرتي معهم في ليالي بار سرجون في أبو نؤاس. سرحت مع قصتك عن رفيق طفولتك الوسيم الذي تعرفتِ عليه في سفرة لمخيم كشفي في غابات الموصل.. تخيلتك وأنت تقصين عليَّ التفاصيل الصغيرة بجسدك النحيل وملامحك نفسها فوجهك لم يزل يبث من مناحيه براءة الطفولة وانطلاقها دون حدود. وجهك ليس له مرسى.. تخيلتك في ملابس الكشافة الخاكية الفاتحة، أنت لا تدرين ولم أجد فسحة لأخبارك أنني كنت أيضا في المرحلة الابتدائية بالكشافة. رأيتك في غابة الموصل تركضين وتضحكين معه.. تخيلت فرحكما.. وكنت لصقك بتلك التجربة ظلا يلازم خطوك.. خطوة.. خطوة. قاطعتك مرة وأنا سكران بالقصة:

ـ باسك في الغابة؟!.

ـ ..

تضرجّ وجهك وشردت عيناك من عيني إلى بحر الشارع المكتظ تحتنا في منتصف الظهيرة. تخيلتك تلك اللحظة تستعيدين طعم القبلة.. تخيلته يطبق على شفتيك للحظة خاطفة ثم تتلفتان بذعر خوفا من الآخرين.. كنت أعيش مع قصتك هكذا.. لذا سألتك ذلك السؤال المباشر المحرج.. لكنني وثقت أنكما تبادلتما القبلات واللمسات الأولى وأنت تطيلين التحديق الشارد نحو حشود البشر المارقة تحتنا بقسمات متضرجة.. قلت لك بهمس:

ـ كملي يا حلوتي كملي!..

استدار وجهك ببطء شديد وكأنك في حلم. عيناك سارحتان فيَّ وكأنني ليس من هذا الزمن.. رأيتك غارقة بظلال ذلك الزمن البعيد.. البعيد.. خدرني شرود عينيك وأنصت لباقي القصة.. صرتي تسردين بكثافة مربكة جعلتني أطلب منك مراراً التريث ومنحي مزيدا من التفاصيل.. قلتِ: تبادلنا العناوين.. كنا نسكن بغداد لكن في منطقتين متباعدتين.. تبادلنا العديد من الرسائل.. تخيلت لهفتك وأنت تنتظرين ساعي البريد الذي يقرع الباب في العراق ليسلم الرسائل باليد.. كيف تركضين إلى غرفتك أو أي مكان تصبحين فيه وحيدة.. رأيت أصابعك المرتجفة وهي تفض المظروف وتفتح ورقة الرسالة المطوية.. ماذا كان يكتب لك؟!. قلت لنفسي وأنا أنصت لحديثك الشارد.. ماذا؟!. تخيلت كلماته الساذجة البليغة وهي تحاول قول ما في القلب وقارنتها بكلماتي الخبيرة التي فيها كل الزوايا والذنوب.. كل ما يضيفه العمر من خبرة تستدير حول الإنسان.. كلماته قلت لنفسي وأنا أنصت إليك أسعدتك أكثر من كلماتي ونحن في خضمين وتجربتين مختلفتين.. كنتِ يا حلوتي تفضّين رسالته

بروح لا تعرف من الدنيا سوى براءتها.. وأنت حينما تفتحين رسائلي تخضعيها لحساب يشبه حساب الآخرة.. فكرت بكل هذا في لحظة خاطفة وأنت تسردين لي قصتك مع هذا المحب العابر.. لكن سرعان ما تحولت قصتك إلى دراما جعلتني أرتعد.. قلتِ:

ـ القصة انتهت إلى هذا الحد.. هكذا اعتقدت أول الأمر والرسائل بيننا انقطعت.. لكن.. في منتصف الثمانينات حدث ما لم يكن في الحسبان.. ولزمتي الصمت طويلا إلى حد جعلني أهمس لاهثا:

ـ ماذا حدث؟!.

ـ في ليلة هادئة اقتحموا بيتنا وأخذوا والدي.. ولم يلقوا بالاً لسؤالنا لم؟!. فأبي لم يكن مهتما بالسياسة وأثر العزلة عنها وكرس وقته للتدريس بجامعة بغداد.. وضاع منذ تلك الليلة!.

كنت أعرف هذه الحكاية.. فقلت مع نفسي أنها تكرر نفس القصة.. تململت للحظة.. أقول لك بوضوح يا حلوة عمري.. تململت.. لكنك مثل حكواتي ماهر يجيد الحبكة. واصلتِ سرد الذروة في قصتك العجيبة عن الصدفة التي جعلتك تلتقين بزميلك في الكشافة الذي تناهى إليك أنه انخرط في أجهزة الأمن وأصبح ضابطا.. وهنا الدراما والإشكال.. قلتِ لي بهمس وأنت تعرفين مدى حساسيتي من كل من عمل بأجهزة الأمن.. قلت لي خجلة:

ـ أسمع يا عزيزي أسمع.. تجرد من كل شيء وتخيل وضعي في تلك اللحظة.. همست لي زميلة في المدرسة كانت معي في

الكشافة ويبدو أنها رأت ما كنت فيه من علاقة معه وكانت جارتهم.. أعطتني تلفونه فاتصلت به فورا.. وجدته ينتظرني على جمر.. كان وجهه مختلفا.. لكنه حينما يتحدث معي يكتسب حلة أخرى وكأنه غير الوجه الذي أعرفه.. وعدني وغاب.. وعدني بالمحاولة.

لم يتخيل بابا الوقوع بهذا المأزق أبدا عندما قرر العودة مع زوجته الألمانية إلى بغداد ليدرس الفلسفة في كلية الآداب..

لا أبي رأيته بعد ذلك

ولا حبيب الطفولة رجل الأمن الذي سمعت أنه لأجلي طرد من وظيفته!.

صورتِ لي ضابط شهيداً وكأنه بمثابة والدك الذي ضاع في أقبيتهم إلى الأبد..

أربكني قصك.. وشرودك.. والخلاصة التي وصلت إليها.. فنظرت نحوك بشدة متخلصا من وهم القلب وقلت:

ـ ما سبب قصّك هذه الحكاية عليّ؟!..

أجبتِ بشرود وكأنك لا تزالين بتلك الأمكنة عاجزة إزاء مصائر شخوص قصتك حبيب الطفولة والأب:

ـ لا أدري.. لا أدري!.

شعرت بمفردة لا أدري تنطلق من قلبك ناصعة.. لها شكل وجهك السارح الحالم.

لا تدرين.. ولا أدري!

فيما كنت تسردين تفاصيلك وأنت شبه حالمة كنت أسرح بك حالما. أخذتك إلى ظلال طفولتي، تحت نخلة في بستان بطرف الديوانية.. مستسلمة راغبة حالمة.. وضعتِ رأسك الصغير على صدري جوار ساقية.. لا تضحكي من قولي.. طالما حلمت في صباي بتلك اللحظة التي من المستحيل تحققها في مدينتي الصارمة التقاليد المغلقة.. الشجن المتدفق من خدر قسماتك وشرود عينيك في ضجيج المقهى جعلني أحملك برفق بمخيلتي إلى ظلال نخلة ببستان.. وجدت بك كل أحلام صباي المجهضة.. ومثلما أستيقظ عندك حبيب طفولة أيقظتي كل صبايا صباي..

هل تعتقدين أن من السهولة علينا نسيان مثل هذه التجربة الشعورية؟!.

هل؟!.

حتى لو قررتِ الاقتران بالذي يضع لك كل مساء باقة ورد بباب شقتك سوف تعذبك جلسة مقهانا إلى الأبد!. قد تضحكين الآن من كلامي.. وتقولين هذا غير معقول وقعت صدفة على مجنون جعل من لقاء عابر في مقهى قصة وحكاية على قول أغنية شريفة فاضل الشهيرة..

لكن..

ها أنتِ لم تعثرِ على سواي.. أنا ظلك الهش الحزين.. أنا مرتع روحك الضائعة

كوني دفئي ومرتعاً لروحي المتعبة.

افتحي باب عالمك المكتوم أمام خطاي الضاجة.. افتحي ودعيني أدخل بأمان إلى كونك الناعم.. الهش.. الحائر الفائر.. المسترخي اللاهث.. المضيء بالنور والمحبة والذنوب.. بالعذاب والصمت.

أسمعي يا حلوة عمري..

لا أدري لم أحس أنني سأفقدك..

لا أدري

هل بسبب ما فقدته من أحبة ورفاق وزملاء في خضم عراقنا الدامي!.

أم بسبب ضعف ما بنفسي؟

لا أدري حقا..قد يكون السبب هو ذلك الإحساس العميق بقربك.. حتى لمست في شرودي روحك الضائعة..

فيا لقدري.. ويا لقدركِ

يا معبودتي الغاربة

ويا لوحدتي الضائعة..

يا لوحدتنا وسط الجميع..

هل أتخيل أم ما أذهب إليه حقيقي

وجهك المأمول حجتنا..... يوم تأتي الناس بالحججِ.

21 - 11 - 1997

الدنمارك

11. معشوقتي الجنية

أية سفينة قدّتْ من روح.. أية ساحرة مثل ربة من أرباب الأساطير، أية مجنونة هي أعماقك يا صغيرتي.. يا من ستفتحين بغيابك جرحا في القلب لا براء منه..

وهل تبقى من العمر فضلة تكفي للبراءة من عشقي المجنون بك؟!.

يا حمامتي.. لم تريدين الخلود إلى قفصٍ قلقٍ، ميناء عابر

سيزيد من وحشتك دوني؟!..

يا صغيرتي الحائرة..

.. أنا.. أقدّكَ بروحي.. وأغُيبكَ في لهيب مشاعري الفائضة.

يا مجنونة..

وتقولين لي.. أريد الرسو.. ولو إلى حين.. وأنّى لمن أبتلى بنار العشق الرسو.. أنّى له

أنا وأنتِ.. نضيع في البعيد

أنا وأنتِ.. ولا ميناء

أنا وأنت.. إبحارٌ دائمٌ في يم لا ساحل له.. ماء وسماء.. زرقة تندغم في زرقة.. نحلق.. ونغوص، نسبح.. نطفو.. نغرق.. نتلاشى.. وننبثق من ذرات الهواء من الموج من الزرقة.. لنبحر من جديد..

عن أي ميناء تتحدثين، وأي ميناء هذا الذي يستطيع جعلك لا تبحرين.. أي ميناء!.. فتعالي.. تعالي لنضيع.. تعالي لنحترق بلهيب اللحظة البارقة، الخاطفة.

لماذا أنت عاتبةً عليَّ، لما أبوحُ بهِ إليكِ في وحدتي، ما أسره لبياض الورق.. لا تعتبي عليّ، فإذا عاملتني معاملة المنطق والعقل.. فسأكون لست سوى أحمق مجنون، أسمعي يا جنيتي أسمعي: لن تستطيعي لمسي بعقلك أبداً.. بل بقلبك فحسب.. أنا لا ألمس إلا بالقلب.. ورفيقة عمري تمسكت بيّ في القلب، وعندما حكمت عقلها قليلا وجدتْ نفسها تكاد تضيّعني.. إذا لم أقل أنها فقدت جنون مشاعري التي انصبتْ عليكِ.. المسيني بقلبك حتى

تستوعبين رغبتي بالطيران والاستكانة، تناقضي الذي يشبه الحياة. أعيش هذا التناقض والتداخل منذ طفولتي، ولذلك حكاية أخرى، أتمنى سردها لك على الورق، أو بالكلام، أو الرقص، أو اللمس، أو أسردها لروحي في حالة غيابك الوشيك..

غيابك المر.. المرير.

لا تعتبي يا حلوتي.. لا تعتبي..

قلتِ: تحتكر الكلام.. وأنا عمري لم أحتكر سواه.. أي البوح..

أتدرين لماذا لم أدعك تتحدثين في اللقاء الأخير؟!.

فعلت ذلك عامداً وجعلتك بحكاياتي عن صاحبي الطبيب تنسين ما كنت تودين قوله إلى أن مضت الساعات الخمس في المقهى كالبرق. كنت تريدين وضعي في زاوية ضيقة وتخيرينني بين صاحب باقات الورد الذي يبدو أنك تلتقين به وبين أن أحسم الأمر وأتخلص من العائلة كي نتزوج.. كنت أعرف مسعاك لذا عندما مرق صاحبي الطبيب فجأة وجدتها فرصة كي أقطع حديثك فأشرت نحوه صارخا: ذاك.. ذاك.. فمددتِ عنقك مائلة نحو الواجهة الزجاجية المعلقة المطلة على الشارع وقلت: أين؟!. فاقتربت منك وجعلت وجهي لصق خدك الأبيض الناعم ومددت ذراعي مشيرا إليه.. كان لهاث أنفاسك مسكرا.. كدت أحضنك أمام رواد المقهى.. سحبت نفساً عميقا. تمالكت نفسي بالكاد. ناضلت حتى تمكنت من سحب جسدي من سورة رائحتك المهيجة. وبدأت الكلام عنه.. بدأت أروي لك وأنتِ مسترخية على مسند الكرسي الوثير:

ـ قلت له يوما: هل جربتَ أن تركبك المرأة بوضع الفارس، فصرخ وسط الشارع المكتظ: تخسأ أني تركبني مره!.

متنا من الضحك.. وبينما أنت غارقة بالضحك قلتِ: يبوه عزه كم سنة صار متزوج؟!.. قلت لك: أكثر من عشر سنوات. تزايد هدير ضحكتك حتى دمعت عيناك وأنت تستلقين على حافة مسند كرسيك.. وعلقتِ ما أن هدأتِ تعليقا شممت منه خبرة خفية: ـ خطيه كل شي ما مفتهمه منه!.

وجدت بذلك فرصة للتخلص من جدية الموضوع الذي أنا حائر فيه فعلا.. فحدثتك عن سهرنا وسكرنا في البارات. كيف تطلبني النساء للرقص وسط مرقص البار.. وكيف يظل يتأمل دون جدوى.. بادرني قائلا:

ـ ليش ما يدعني للرقص؟!.

ـ لا أدري!

وكنت ادري!

قال:

ـ يجوز بسبب المكان لنتبادل!.

كتمت بعناء ضحكة عاصفة ضغطتني. كنت أجلس على حافة فسحة الرقص بينما يجلس هو محصورا بالطاولة ومكاني والجدار. قلت له: لنجعل الأمر طبيعيا، كان البار صغيرا ورثاً.. سأذهب إلى التواليت، فتجلس بمكاني. لما عدت وجدته جالسا بمكاني منتظرا.. اقتربت امرأة جميلة من طاولتنا فتوهج وجهه فرحا لكن سرعان ما انطفأ والقادمة تجاهلتهُ ومدت يدها نحوي

وقالت: أتسمح!. كدنا ننفجر من الضحك الذي جعل رواد المقهى يحدقون بنا مبتسمين.. حدثتك عن أيام موسكو حينما كنا نفطر بالفودكا.. كنت تقاطعينني متسائلة: هل ما تحكيه حقيقي أم أنك تروي قصصا من مخيلتك كما تفعل بالكتابة.. قلت لك: ألم تريه صدفة.. هل تريدين اللقاء به كي تتأكدي من حقيقة الشخصية التي أحكي لك عنها.. كنتُ أحدق في قسماتك المذهولة منتشيا برذاذ سحرك المنهمر عليَّ، على الطاولة، الكراسي الرواد، وظهيرة المقهى.. كانت قسماتك مسترخية وكأنك في حلم يقظة.. تنصتين فأمعنت في التفاصيل عن ذكاء هذا الطبيب.. عن حياته فهو أبن عسكري متطوع ــ نائب ضابط ــ من الفلاحين المهاجرين من العمارة إلى مدينة الثورة في نهاية الخمسينات. عن مسار حياته وعمله مع والده بعد الدوام وفي العطل في بسطة جوار مقهى يشوى على منقلة الكبد واللحم والقلوب والكباب.. كيف وكيف عمل سرا بتنظيمات الحزب الشيوعي العراقي.. فتنقل بين المدن واضطر إلى الالتحاق بالثوار في الجبل حينما انكشف التنظيم.. في مقر الفوج الأول في موقع ـ مراني ـ تعرفت عليه.. كان طبيب الموقع.. شديد الذكاء هادئ.. يعالج المرضى والجرحى من الثوار بصمت ويعمل بكل الاختصاصات، يولد النساء.. ويجري العمليات حتى أنه قطع ساق مقاتل أصيب في معركة بسكين حادة معقمة وأنقذ حياته من الغنغرينا.. امتزجت في وجهك الانفعالات كنت تظنين أنك وقعتِ على شخص أحمق من خلال مفتتح الحديث لكنك الآن ترينه بعين مختلفة.. كنت مثل قطٍ أتابع أصغر انفعال في وجهك المرآة حيث يتغير الانفعال حسب مسار الحكاية من الاسترخاء

إلى الشد والانتباه وبالعكس.. ووجهك حجتي يتجلى بالحالتين عذبا.. شديد الرقة.. غير وجهك عندما تخوضين في وضعنا المضطرب والأيام القادمة.. كنت أمهد لك كي أخوض في ما جري لي أيام ضياعي الممتع كصعلوك في موسكو أبان سقوط تجربة الاشتراكية العالمية الأولى فيما بين عام 1991 - 1992 حيث كنت نزيلا في شقة من غرفة ومطبخ وشرفة في طرف من موسكو حولتها بعد سفر زوجتي وطفلتي أو تحولت رغما عني إلى شقة صعاليك.. فقطعت الكلام عن سيرته لأروي لك طرفة عنه كي لا تملي حديثي، وكي أتمتع بوجهك وهو يتحول من حالة إلى حالة.. من الوجوم والشرود إلى البهجة حسب ما أرويه. رويت لك عن لقطة طريفة. التقيت صدفة في موسكو بجار لي قديم هو مثلي مجنون بالنساء.. لكنه عاهر. كنت أكتب له الرسائل الغرامية في صباي مقابل قصة يرويها لي عن علاقته بالبنت.. كان يطعم خيالي ويلهبه، وبواسطة رسائلي كان يفوز بأجسادهن سرا في الغرف وعلى السطوح إلى أن أمتهن النساء وضاع، بينما أنا تمسكت بالضمير وكنت أظن أنني سلمت حتى رأيتك فوقعت.. كنا معا في مترو موسكو العظيم، نغازل الفتيات الروسيات بالعيون.. وكنَّ يبادلننا البسمات والإشارات. فالتفت صاحبي الطبيب وكان ثالثنا قائلا:

ـ الإ تقل لي لماذا تضحك البنات لكم، ماذا تفعلا لهن؟!. أنا مثلكم أنظر لكن ولا واحده تبادلني ضحكة ونظرة؟!..

حينما سأل كنا نترجل للتو من عربة المترو. تبادلت مع صاحبي النظرات. قلت له:

ـ كيف أشرح لك يا رفيقي أنت قضيت عمرك تدرس حتى صرت طبيب وأني قضيت عمري أكتب رسائل للبنات وأغازل.. فكيف أشرح لك!.

رد على الفور: أش تقصد؟!

أجبته ضاحكا ونحن نقف على السلم الكهربائي الطويل المتحرك الصاعد نحو قاعة المترو العليا:

ـ عدنه خرزة نحكه فينجذبن البنات!.

انفجرتِ بضحكة عاصفة جعلت كل الرواد يشخصون نحونا.. كنت لا ترينهم.. خلف ظهرك وبمواجهتي.. أحسست أنهم يحسدونني رجالا ونساءً.. يحسدون البهجة التي نحن فيها.. صخب لقاءنا.. الضحك العاصف المنطلق بين الحين والحين.. جمالك المشع.. الغبطة التي في وجهي الشاخص نحوهم بعينين مترعتين ببهجة تفضح قصتنا.. أكتب لك هذه التفاصيل كي لا أنسى.. فالزمن ملك النسيان.. وتفاصيل الأيام رماد.. جعلتك حكايتي وقصصي تنسين كل ما كنتِ تريدين قوله عن موقفي وحسم موضوع علاقتنا.. فطلبتِ المزيد عن صاحبي الذي لمحناه صدفة فخلصني من دكان عقلك الذي سوف يؤدي بك إلى المهلكة في عمرك الخاطف..

طالبتِ بالمزيد عنه وأنت تضحكين معلقةً بين الحين والحين

ـ معقولة هذا شخص حقيقي.

..سردت لك منحى أخر من تجربته، كيف ناصبه العداء رفاقه القدماء لما صارحهم بتعبه قائلا:

ـ تعبت وأريد مغادرة كردستان..

كيف شوهوا سمعته.. قالوا عنه: مجرد مضمد أدعى طبيباً.. وفي ذلك الجو المحصور المشجع على النميمة والقيل والقال.. كان نبيلا.. قويا.. لم يصدر عنه أي رد فعل.. أبقوه يتنقل بين قواعد الثوار قرابة ثلاث سنين حتى سمحوا له بالوصول إلى الحدود الإيرانية.. أخبرني ونحن نشرب في موسكو:

ـ رفضتُ الخمسين دينار اللي عرضوها علي كمساعدة قبل عبور الحدود

وظل إلى الآن كلما نسكر في حديقة أو بار يصرخ:

ـ الكلاب.. يريدون شراء نضالي ومخاطرتي بحياتي بخمسين دينار.. تخيل.. كلاب.. كلاب!.

في إيران عمل طبيبا تزوج بنى أسرة.. وأنتقل إلى سوريا مثل قصتي وعمل هنالك في مشفى تابع للحركات الإسلامية في الزينبية قبل أن يصل إلى موسكو.. وفيها ومع الفودكا صار مثل مجنون يسكر ويتصل تلفونيا بمنظمة الحزب الشيوعي ويشتم ما طاب له.. كنت أجده محقا.. بالشتائم لا بل شجعته عليها.. أنا الآخر ملئوا روحي جروحا في التجربة.. وقتها لم يكن أحد يستطيع الوقوف بوجهه والعالم الشيوعي موشك على الأفول ونحن في موسكو شبه ضائعين..

لا تدرين كم كنت مستمتعاً بملامحك الغائبة في القصة التي أسردها.. كنت أحاول تخيل العالم الذي تتخيله من حكايتي.. كنت موقنا بغرابته عندك وأنت تقاطعينني مثل حالمة:

ـ هل هذا الذي تحكيه حقيقي.. أم من نسج خيالك!

لكنني كنت فقط أقص ما لمسته ورأيته حقا دون إضافة، بل سأكتشف لاحقا أن يقص الكاتب ما شاهده فعلا بروح مبدع سيكون فنا هو الحياة عينها.. وهذا العري في الكلام بدا خرافة وخيالاً ... أكدت لك مرة أخرى حقيقية صاحبي فعلقتِ:

ـ يجوز ما شاف صاحبك وحده توصل للذروة

قلت لك:

ـ لا.. متوهمة أنت

ـ وين شاف؟

ـ لديه مكتبة كاملة من أفلام السكس.

مرة أخرى انفجرتِ بالضحك العاصف.

كلما أحسست بالوحشة اتصل به وهو جاهز للصعلكة والسكر وخصوصا في أيام إجازته. أسمعي قد لا تعرفين حاجة الإنسان في مدن اسكندنافيا المرتبة، الموحشة. صار سلوى رغم أنه في حقيقة الأمر عسير الهضم لدى الآخرين، لكنني أحبه وأجده ناصعا كروح طفل. ومن هذه التجربة أدركت أن حدس النساء عظيم وليس كيدهن فقط.. اللقاء المتباعد به متعة خالصة.. يحكي ويحكي..خاصة عند السكر.. فهو أجمل سكير صعلوك متوازن قابلته بحياتي.. طبيب ناجح في كل مكان حلّ فيه.. لم يستطع إقامة علاقة صداقة حميمة واحدة.. يستنكف من ركوب المرأة فوقه في الفراش.. معنى ذلك كما قلتِ يفرغ فقط.. حدثني مرة عن طبيبة صينية تعمل معه في المشفى.. دعته في عطلة

أسبوع إلى سهرة في شقتها. لم تكررها أبدا، أعرف السبب، فمن المؤكد أنه لم يصل بها إلى الذروة بل فرغ قبل بلوغها مما جعلها تشمئز منه، وترفض تكرار التجربة إلى حد تجاهلته في صبيحة اليوم التالي وعاملته كزميل عمل، ذلك جننه وجعله يصرخ كلما سكر واصفا عضوها الجنسي الموشوم برسومات غريبة.. قبل أن يصرخ بجنون مهووس:

ـ أخ كس الصينية.. كسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسها

في الصحو قال لي وهو ينظر بعيدا:

ـ ما أغرب النساء.. في اليوم التالي لم تلق الطبيبة الصينية التحية عليّ حتى!

تذكرت حكمتك.. عطفك على زوجته المسكينة!.

ـ أين له أن يصل بالمرأة إلى ذروة وجدها في الفراش؟!.

هو مسكين يجد نفسه مناضلا طبيبا لكنه لم يعرف سر الأنثى!.

بدأتِ تستوعبين كيان رفيقي القديم الذي مرّ في بحر الشارع الضيق، تحت جلستنا، المزدحم.. وقبل أن يتحول الموضوع إلى جدِ وتعودين إلى عقلك الدكان رميت بك نحو ناحية مختلفة.. ناحية ذاك الماضي القريب.. شقة موسكو.. كيف أرتب لك القصة.. لا أريد الخوض في التفاصيل.. لكنني كثفت التفاصيل فقلت لك: عن زيارتي لعاصمة أوكرانيا ـ كييف ـ تعرفتُ على العديد من طلبة الجامعة ومن ضمنهم العديد من العرب من شمال أفريقيا إلى فلسطين من اليسار طبعا.. ومن ضمنهم عرب

من إسرائيل.. يعني عرب 1948 وكان صالح من ضمنهم.. صعلوك وسكير وبربري المشاعر من الذين عملوا في حماية الشخصيات السياسية في الحزب الشيوعي الإسرائيلي.. وكما أخبرتك أن شقتي صارت فندقا وملجأ عجيبا.. تلك الليلة قدم صالح من أوكرانيا وحلّ عندي ضيفا. وكان صاحبي الداعر ابن مدينتي معي في الشقة. وبدأت الجلسة بالفودكا طبعا.. لم أكن أرغب بقدوم صاحبي ـ الطبيب ـ لكنه ألح حتى لم أجد خلاصا من ذلك فحضر حاملا أربع قناني فودكا.. ليس ذلك فحسب بل جاء شبه مخمور..جلس يسمع الحوار المتشعب دون أَنْ يتفوه بكلمة واحدة، فهو لا يعرف أحدا يضاف إلى أنه غير اجتماعي واهتماماته محصورة.. ظللت أوازن بين الحضور.. ظل يشفط الفودكا وكأنها ماء.. وكلما طالبته بالتوقف يزيد إلى أن تدخل في الحديث تدخلا فجا جعل صالح الفلسطيني يطلب منه الكف بأدب.. فانتصب واقفا وصفعه عبر الطاولة صفعة رنت صارخا:

ـ إسرائيلي كلب.. صهيوني

تراجع صالح مثل ذئب جريح وصرخ ضاما قبضتيه. وقفت أمامه ولففت ذراعي إلى الخلف محيطا بجسد الطبيب الذي عرفت من طريقة صفعته أنه لم يدخل في عراك طوال حياته رغم انه نشأ في مدينة ـ الثورة ـ ببغداد. .. حجزته عن الكل لكنه تمادى وصفع صاحبي الداعر أيضا. فحمله عاليا وألقى به على سرير الغرفة المفرد:

ـ ما تنام اللعنة على خالقكَ.

.. كنت أروي لك مثلما كنت أرى..

لم ينم أصرّ على الخروج من الشقة. لم تنفع كل توسلاتنا.. كنا نخاف أن يضيع في موسكو أو يسرق.. فرافقه صاحبي وأركبه سيارة أجرة.. لكن في صبيحة اليوم التالي أتصل ضابط شرطة روسي ليخبرنا أن صاحبنا الطبيب في مركزه محتجزا.

وجدتك منشدة للقصة تنصتين وفي وجهك دهشة وترقب. اتكأت على مسند كرسيّ وصمتُ قليلا مبحرا في عينيك البنيتين الصافيتين المفتوحتين المنتظرتين.

ـ ماذا جرى له؟

أيقظني صوتك من شرودي. أنا الأخر قلت لك كنت أستفسر من صاحبي الداعر، "نسيت أن أخبرك أن الداعر متخرج من جامعة موسكو ومتزوج من روسية". فقال لي: لم يعرف مكان سكنه فعلق في التاكسي حتى الرابعة صباحا، والطبيب لا يعرف الروسية فسلمه السائق إلى مركز شرطة..

انخرطتِ بالضحك العاصف من جديد. وكان الصباح قد أدرك شهرزاد فقلتِ:

ـ لهيتني بسوالفك الحلوة عندي موعد ترجمة وما حكيت كل اللي أريد أحكيه.

قلت لك: نتفق على موعد أخر

هززتِ رأسك موافقة، ثم علقتِ:

ـ نحسم فيه كل شيء

ارتعدتُ من جملتك القاطعة، وقسماتك الجدية هاجسا بفاجعتي القادمة من كيانك الناعم الذي أستطيع حمله والركض به إلى حافة الأرض.. ستصيبينني مقتلا يا صغيرتي الناعمة. بت واثقا من ذلك. سأحاول أن أكون جوارك قدر استطاعتي.. سأحاول.. ثم ألم تكن لحظاتنا وأنا أقص لك حكاية صاحبي الطبيب السكير الصعلوك بهيجة، كدنا نموت من الضحك وغرقنا في ذلك النهر الخفي الدافق الذي جرفنا بعيدا عن المقهى والرواد والوقت ومحنة علاقتنا.. أكتب لك كل هذه التفاصيل لسبب بسيط هو أن هذه المتع لن تجدينها في حياتك القادمة بعيدا عني.. أكتب لك كي ألمسك.. أراك.. أسمع رنة ضحكتك، أستعيد صغير انفعالات وجهك، أمسك بك من جديد لحظة الكتابة.. وكذلك أنت حينما تقرأينها لحظة استلامها من ساعي البريد، وعندما تفتقدينني وتشتاقين إليَّ فيما لو تفارقنا ولم تمزقيها.

هل صحيح أننا سنفترق.. ويصبح اليوم فارغا منك؟!.

أهتزَّ بيدي القلم هذه اللحظة حتى تعّطل، فهرعت نحو الكأس ووضعت مقطوعة Bach التي حكيت لك عنها واشتريت لك قرص هدية وقلت لك كلما تسمعيها عرضا في أي مكان تذكريني وكلما اشتقتِ إليَّ اسمعيها. أسمَعُها هذه اللحظة " No 3 Concerto for Violin and Orchestra No 1.- No. 2 -"أكتبها لك كي لا تنسيها أبدا، لكن الزمن والمصائر قد تجعلك تنسين كل شيء إلى الأبد... أرتعد كطفلٍ مذعور من هاجس النسيان وغيابك، حينذاك ستكون التفاصيل والذكرى والكتابة عنك و Bach مصدر عذاب خفي لا يفهمه سواي.. وسيكون سراً دفيناً كخنجرٍ غدرٍ في ظلمة.. فلمن أحكي هذه التفاصيل

الصغيرة بعدك.. ومن يصدقها أصلاً.. أكتبها إذن لك.. ولي فقط.... فأنا شبه مجنون بجمع الرسائل.. والسطو على رسائل الآخرين.. ولي في مقتبل عمري فضائح وقصص لا مجال لسردها لك في هذه الرسالة..

ناعمتي.... صغيرتي..

ألا تفهمين شدة ولهي بك؟

ألا ترين كيف فجرتِ كياني حتى وقعتِ في نفسي على ما لم أكن أجده دونك؟

أرتعد.. كونك تفهمين ولكنك عازمة على الحسم.. لذا غيبت موضوعك المخرب لروحي بالقص.. سحر القص عظيم وشهرزاد تكمن في روحي وروح كل من يحب الحياة.... أتدرين بماذا فزت عندما شغلتك بقصة صاحبي الطبيب فزت بلحظات دهشتك.. بهجتك.. خدرك.. سماعك.. نبرة ضحكتك.. تخلصك من عقلك المحكوم سلفا بالفائدة.. يعني جعلتك مثلي تسكنين لحظتك وتتمتعين بها وقربتك من قول شيخي علي بن أبي طالب عندما قال للبشر " عش لدنياك كأنك تعيش أبدا" ولحظتي معك كأني بك أبدا.. كلام شيخي علي وَهمٌ وحقيقة بنفس اللحظة.. كلامه حقيقي وأنا جوارك حينما أنسيتك ما عزمتِ عليه.

ناعمتي الساكنة

المتفجرة بركان

المشكلة هي في التجربة

أبوح لك أول مرة..

أنت تلعبين معي!.

وبحساب!.

هذا لا يعني أنك غير متعلقة بيّ!. العكس هو الصحيح.. أنت شديدة التعلق بيّ وتفضلينني على صاحبك مالك محل بيتزا.. بل تعرفين كل تفاصيل حياتي قبل أن نلتقي منها.. أنت متعلقة.. لكنك قليلة الخبرة بالحياة رغم ذكائك الحاد.. لو كنت مثلا مكانك.. وتلمست بالمحب رغبة لأشبعته وملكته.. لكنك كنتِ تعتقدين بزيادة إضرام النار في قلب وجسد العاشق سببا في التوله المستحيل ولم تحسبي أن عاشقك مختلف ذاق وجرب وعرف ويريد ما هو أكثر جنونا... لم تدركي أنيّ بلغت مصاف قد لا تبلغيه كل عمرك مع غيري.. صاحبك متزوج من امرأة ما زال متعلقاً بها وهي كذلك رغم شد وجذب تفاصيل المنفى.. كان الأجدر بك أن تقلبي حياتي رأسا على عقب في كل شيء ..

لو كنت مكانك.. لرفعت ساقي وفتحتهما إلى أخرهما وضممته إلى جسدي الفتي العاري وأريته ما لم ير من شريكة حياته،لو كنت مكانك لجننته. أحكي عن نفسي بصيغة الضمير الثالث.. كي أخفف عليك يا.. ماذا أصفك بغير قليلة الخبرة. لكنك سلكتِ معي ما جعلني أشعر بقسوتك... كيف؟!.

بلا عتاب.. الأمر واضح.. كنت قاسية وقسوتك تنفع مع شاب غرّ وليس معي أنا. لا تعاتبينني يا حلوتي لا تعاتبي..

هل سألتِ روحك ولا أقول عقلك.. أية قسوة عاملتني بها

طوال السنة المنصرمة. بخلتي عليّ باللقاء.. ولقاءك يفجّر فيّ ينابيع من المحبة والتوازن وحب الحياة.. بخلتي رغم أنني أبحثُ لك بفعل حضورك جواري في كياني وأنت حالمة تقصين علي قصة صبيك الأول وحيرتك.. وكنت أعرف أنك صفيتِ قبل أيام علاقة مع زميلك الدنمركي في الجامعة.. وبسببه تركتِ بيت أهلك لتسكني في شقة مستقلة قلت لك:

ـ ليس أمامك إلا العثور على رجل يشبهني.

كنت أرغب بالمزيد.. المزيد من المواعيد، التقارب، التداخل. كنت أرغب في الوصول في عشقك إلى حد الهيام.. كنتُ راغبا.. كنتُ.. هل تعرفين بأني حتى هذه اللحظة عندما أضرب رقم هاتفك يتجنن قلبي ويصطخب. أضج بدقاته فتربكني حتى أصبح عاجزا لا أستطيع التعبير عما يجول في خاطري وكأنني ذاك المراهق ابن الرابعة عشر المقبل على بنت الجيران في خلوة الشارع.. ذات التلعثم.. والارتباك. بحت لك يا حلوة.. ثم ألم تلاحظي انطفاء الوقت في حضورك.. كل مره تنبهيني من خدري وطيراني.. أما أن أذهب أبعد.. ذلك يعتمد على مبادرتك، فرغم تعلقي المجنون بك، وشدة صراحتي، أرتعب من خاطر خدش عالمك.. من أن تردي لي رغبة.. أرتعب وأموت خزيا.. أخاف جرحك وجرحي.. لدي كرامة مختلفة، فأنا لست بالمحصلة سوى رومانتيكي يسكن أخيلته.

وتقولين إنك تحتكر الوقت والكلام في مكالمة هذا المساء.

أسمعيني يا حلوتي

أنت لم تسمحي لي بالاقتراب منك إلى حدود أخيلتي أو كما

أعيش معك بأخيلتي.. الكلام قلته من أول لقاء. وأبتل لباسي الداخلي من أول لقاء. وأمطرتك سيلا من الرسائل القصيرة والمطولة.. فماذا بيدي؟. أنت متوجسة، قلقة، حائرة، خدره، لم تفتحِ بابا كي ألمس روحك بأصابعي، أرقص لك، أنشد أشعارا، أقبلَ قدميك، أبوح أعمق من الكتابة.. بأصابعي.. وتقولين لي أحتكر الوقت والكلام.. يا قاسية.. يا أمتع قاسية في الكون.. كم أنت واهمة يا صغيرتي.. يا روح الحمام.. يا من ترفرف في صمتي أجنحتك الناعمة التي لا يراها مخلوق سواي.. أنا المجنون ليس مجازا بل حقا.. تدورين أراك تدورين مثل ملاك صغير يرفُ حول استكانة وجهي الحزين في البيت والقطار والبار والغابة وعلى ساحل البحر... أراك ذاك الملاك الطفل الراف حول غفوة مريم العذراء الذي استوقفنا ونحن نمرق جوار كنيسة. ترفين حولي هذه اللحظة وأنا أكتب لك بصحبة باخ.. ترفين حولي، تحرسين يومي، تحليه، تجعليه محتملا. والآن تبغين الرحيل.. ليس الرحيل فحسب بل تبغين البخلَ علي حتى بلقاء.. ولقاءك زاد لروحي.. أما الجسد فلدية قصة أخرى، سأفضي بها إليك في فرصة أخرى، لكن لماذا لا أكتب عنه الآن قبل أن تضيعين مني؟.. لماذا؟!. وأنا أكاد أطفح بك يا حلوتي، اشتقت لك.. لصوتك الذي يبعثُ في كياني ألذ رعشة.. سأتوقف عن الكتابة وأتصل بك.. هاأنذا أضغط على رقمك ونبضي تجنن..

يا شيخي..

مدددد.. دد.. خلصني من هذا العشق المبرح.. خلصني!.

أخذني صوتك إلى صباي.. هل كنت في فراشك حقا؟!. هل كنتِ وحيدة في هذا الفجر الموشك على الطلوع.. هل كنت تنظرين من نافذة غرفة نومك إلى أفق الفضة الماثل خلف نافذتي المفتوحة على الحقول.. هل.. مدد.. دد..دد..دد..دد يا علي بن أبي طالب مدددددددددددد!.

نبرة صوتك النعسان ألهب وحدتي.. ضقت بنفسي.. درت.. عببت كأسين من العرق اليوناني وتذكرت ذلك العراقي الذي صرخ كي يتخلص مما فيه مناديا الحبيب وعاشوراء:

"يمتة يجي عاشور وأطبر طبرتين

وحدة أعله ساهي العين ووحدة عله لحسين".

صوتك والقصة والليل وباخ والرسالة التي أكتبها جعلني بنفس وضع ذاك العراقي الذي أبدع بيت الدارمي هذا كي يفضي بما في نفسه من شدة عشق وضعه بمصاف الموروث الشيعي المقدس.. وأنا بك أهوي بسيفي على رأسي مرتين عليك فقط.. مثل حيرتي الآن.. مثل حيرتك.. وأنا في المكالمة أناديك باسمها.. لزمتِ الصمت حتى ظننت أنك ستغلقين الخط.. لكنك قلتِ بصوت غاضب.. أنا فلانة لم تناديني باسمها؟!. أربكني تبدل نبرة صوتك.. ما هذا التعبير الذي كتبته.. كل شيء فيك يربكني. تلعثمت بالكلام معتذراً، لكن بعدما أغلقت سماعة الهاتف وهبطت في نفسي فوجدتني يا حلوتي مسكينا.. فضحتني نفسي.. فها أنت ترين أي اختلاط ذاهب في عمق كياني.. أي اضطراب أعيشه.. هاأنذا أخلط باسمك قبل قليل.. هذا ما صرت إليه حقا. أنها ليست زلة لسان، بل حالة إحلال روحي عميق..

اللعنة.. سأتصل بك الآن.... فغضبك أربكني وجعلني غير قادر على تفسير الأمر.. سأضرب رقمك.. قلت لك: أنا في حيرة.. ففي البيت أناديها أحيانا باسمك الخاص الذي أسريتي لي به وقلت منذ أول لقاء ناديني به فقط... وأنت خير من يعرف شدة ذكائها ونباهتها. تلتفت نحوي بقسماتها الجميلة المتنمرة وتقول:

ـ أش بيك تغيير اسمي!.

وتحدق نحوي بعمق مردفة:

ـ هذي من فلانة!

أضحك لها.. أهرع لتقبيلها، ومداعبتها بأصابعي أشم عنقها وهي جوار الطباخ.. قائلا:

ـ هذا أسم امرأة أكتب عنها قصة وأفكر بها طوال الوقت!.

كذبت عليها وحينما أخبرتك ضحكتِ بهدير جعلني أتقلب على فراش الصالة مثل مزهور بهجةً..

أي مجنون أنا.. هاأنذا أحلك محلها.. وأحلها محلك.. أنا المسكين الضائع بينكما إذن!.

أتعرفين ماذا يعني أن أحلك محلها في دفين نفسي؟!.

أتعرفين؟!.

ذلك يعني أني أحلك محلها في عمري.. وهذا الكلام بات يطفح من لا شعوري إلى ساحل اللسان معك ومعها..

ذلك يعني أنك ستكونين كل عمري!. إلى حد ناديتك في الهاتف وكأني أتحدث معها!.

سأثرثر بكثافة قدر الإمكان حول هذا الاضطراب الذي أنا فيه.. سأبوح لك بشيء عن نفسي والأنثى والفراش والحب..

سبق أن أشرت لك باللقاء الأول عن فلسفتي في الحب وطبيعة نظرتي للأنثى.. التي كانت سبباً جعلني لا أتمتع سوى مع المرأة التي أحبها وتحبني طبعا، إذ لم يرتبط الجنس لدي إلا بالحب، حتى في مراهقتي وشبابي لم أستطع منح نفسي بالكامل مع العاهرات في المواخير السرية في مدينتي، وفي بغداد شبه العلنية، ومع نساء عابرات يمنحن مقابل مبلغ.. كان ذلك في زمن العراق البعيد، أما بعد ذلك أي حينما عثرت عليها وأنا في منتصف عشريني ومنحتني كلها في أيامنا الأولى، أرتني الشهد صافيا.. لا ما هذا التعبير القاصر. هبطت بي إلى عمق البهجة وسط الرعب والدم والخراب. بعد هذا صارت حجتي لا أجد ضالتي إلا بهذا التكوين.. أنا المدله أصلا بجسد الأنثى المقدس بكل ما يحمله من معنى اللذة والخصب.. وسر الوجود.

وجدت بجسدها كل المعاني، قداسة اللذة، ومعبد ذاتي.

ألا تذكرين قلت لك ذلك في أول لقاء بعلية مقهانا الأول، قلت: قد أكون أكثر إنسان ذاق لذة الجسد بحنان عريه والشوق وهي كذلك في رحلة عمرٍ سرعان ما نكتشفه لاهثا خاطفا. " وعندما ظهرتِ بحياتي " أكرر هنا جملتك الجميلة التي همستِ بها البارحة عبر الهاتف. أربكتِها كلية، مثلما أُربك حياتك الآن.. لذا تحاشيتك وأنت بنت الرابعة والعشرين.. وقتها كانت حياتي معها ممتحنة بالتفاصيل وهذا المجتمع الجديد. فقلت مع نفسي أي قرب لك قد يوقعني بوهم وأنا بذلك الوضع الهش. وظننت

وقتها أن فارق العمر بيننا حاجز فأنا أكبرك بعشرين عاما. لم أُقبل عليك.. ولم أسعَ إلا بعد استقرار وضعي هنا معها والمجتمع الجديد.. أنا معها في قمة السعادة في اليوم والفراش لكنني يا حلوتي وجدتني منجذبا إليك..... أقترب منك.. أتلمس روحك في نفسي.

كيف تريدين أن أصل إلى علاقة معك بمستوى علاقتي بها.. كيف؟!.

أنا هنا لا أتحدث عنك!. فأنت سرٌ لا أعرف غوره الآن، لكن أتحدث عن نفسي.. أسألها كيف يتغير ذلك البناء الراسخ القديم ليحتوي عالما جديدا.. سأحكي لك باختصار:

قلت لك بأنني في الفراش أمنح كل ما بيّ، والجنس إذا كان ثمة عقل فيه فهو ليس إلا عهرٌ.. الجنس مثل رسائلي إليك تدله مجنون.. أو هو محاولة محاكاة ذاك التدله الروحي بالأصابع والأطراف والقسمات والوسط.. وكل شيء، ولكي أتداخل بالأنثى يتوجب عليّ أن أكون بأقصى حالات التدله الروحي والهيام وقداسة كل شيء فيها

فكيف السبيل إليك يا حلوتي كيف؟!.

سأفصل لك كل هذا المسار المعذب، وأريك كيف وصلتُ إلى طرف ساحلك إلى لحظة اللمس، إلى انفرادي.. أو انفرادك في أخيلتي.. حتى في أخر لقاء انحنيت عليك بعربة القطار حضنتك من تحت إبطيك وشممتك عميقا.. عميقا من العنق.. وددت لو تدخلين بأنفاسي..

سأكتب لك لاحقا عن ذلك.. كيف حلمت بكِ!. كيف حاول عقلي الباطن تدميرك.. وكيف أنتصر عشقي.. وكيف وصلت إلى ساحلك

المسيني بقلبك كي تريني

بقلبك المسيني

كل هذا وتقولين لي أنك موشكة على الرسو بقبر ميناء

لك ضمة ومليون قبلة لكللكِ

سأكتب لك الأسبوع القادم

المدله بك

الحلاج بن عبد سوادي النجار

1998 الدنمارك

12 ـ عاصفة هبت من جواره وضيعته

فرك أجفانه بظاهر كفيه، وحملق بعينين متعبتين محـاولا معرفة موضع رقدته. الأشياء تغرق في ضباب أبيض كثيف فلا تظهر منها إلا حواف كتلها المختلفة الأشكال. أطبق أجفانـه مستسلماً لشبه غفوة. لبث ساكناً دقائق معدودة، ثم باعد أجفانه رويداً رويدا.. فنزعت الكتل والمساحات والألوان ضبابها. وجد نفسه يستلقي على مسطبة منزوية تحت شجرة يوكالبتوس تطل على قناة من قنوات كوبنهاجن. حدق بالماء، بصف الأشجار

المتناسق في الضفة المقابلة، بزرقة سماء الظهيرة الصيفية. أنصت للسكون، لحفيف أغصان الأشجار الخفيف، للصمت الذي ضج بالضحك القادم من خلف الساتر الترابي الأخضر خلف موضع رقدته.. فأختلط الضحك بقامتها الرامحة..

ـ نبرة الضحكة نفسها.. أتكون خلف التل سمعت بوضعه وجاءت تبحث عنه!

قال مع نفسه مستمتعاً بأخيلة أدمنها منذ لحظة رؤيتها أول مرة وهي تنفلتُ ضاحكة من جواره في ذلك البيت البعيد حيث أصطحبه أخوها ليلقي به في الجحيم.. إلى جوارها الكارثة التي تجلت بغتة مع هبوبها من جلستها، لتنحرف في حركة رشيقة في المسافة الضيقة بين الطاولة والأريكة كي تتوسط فسحة الصالة الواسعة. كان الكل يتابع حركة جسدها المهتز على إيقاع ـ أنت عمري ـ لأم كلثوم التي وضعتها أختها الصغيرة في آلة التسجيل.. أمها.. أختها الكبيرة. كانت البهجة التي بعثها فعل الرقص أسكرت العيون وبشرة الوجوه فراحوا يصفقون متتبعين إيقاع الجسد المتلوي، المرتجف، المتموج بمهارة وخفة مذهلة. أما هو فلا يعرف أحدٌ ماذا ألم به.. لا هي ولا عائلتها طبعاً ولا حتى هو!. فقبل أن تهبُ بذلك الشكل المباغت كان ينفرد معها بحديث عام يتعلق بالبشر والمجتمع الرجل والمرأة، احتدام العاطفة وموتها، مواضيع عميقة لكنها عامة ليس إلا، في تلك اللحظات كان يأسف في داخله لهذه الكتلة الأنثوية الصاعقة التي تحاور وكأن في عقلها تاجراً يحسب كل شيء بمنطق رياضي صارم. في الغمرة تلك.. في بهجة غور الجليس بكيان الجليس.. في تلك اللحظة الحاسمة التي كان يشعر بالأسف على صلابة

الأنثى ذات الجسد الهش الرقيق الناعم البشرة والصوت، المحدقة بعينين عسليتين لعوبتين تناقض صلابة أفكارها. في اللحظة تلك التي كان فيها يحاول أن يرقق من أطر كلامها المحسوب.. في تلك اللحظة بالضبط باغتته:

ـ لعفو عيني.. بس ما أگدر.. ما أگدار.. والله ما أگدر!

قالت جملتها الطويلة وهي تبلع الحروف وتختض مثل سعفة في مهب ريح خضاً جعل جسدها يبرق في مسافة السنتيمترات التي كانت تفصل جسديهما بريقاً أعشى بصره وبصيرته ملقياً به في نهر الجحيم المنفلت وسط الصالة، وجسدها المتكسر المهتز الذي ينطوي إلى الخلف حتى يلامس شعرها الأشقر المنثور سجادة الصالة الوثيرة.. لينتفض منتصباً مثل فرس تجفل، كتلة ماء فائرة تتشكل على إيقاع اللحن بطريقته الخاصة.. أغرقه دفقها المتفجر على مسافة أمتار.

.. قريبة المنال.. مستحيلة..

في فترة الرقصة المباغتة ظل جالساً، حيث قطعتْ الحوار وقامت، جامداً على الأريكة يحملق في فيض الأنوثة العاصف النافث لهباً ورذاذاً جعله لا يشارك في التصفيق:

ـ هل كان يُضَخِمْ في مخيلته ذاك المشهد؟!

سأل نفسه مراراً بعدها لكنه وَثَقَ بأنه حتى لو كان يضخمها، فتلك من أسرار القلوب التي لا مرسى لها ولا آفاق.

ـ لم يستوعبني أحدٌ في عمري العاصف، فالكل كان يفردني واجدا بيّ شخصاً غريب الأطوار والآراء والسلوك.. الكل كما

حال تلك اللحظات التي تحولت فيها إلى منحوتة قديمة تشخص نحو الزمن.. نحو جسدها النحيف. لاموني بعد الرقصة على ثقل إيقاعي وجديتي الفائضة عن اللزوم والتي جعلتني لا أصفق ولا أنفعل لرقصها.. وأول من لامني أختها الكبيرة الساهية!. أنها لا تدري ما كنتُ فيه في جمودي العظيم ذاك وأنا أتكئ على أريكة الصالة.. لا تدري أي عالم عاصف كان في انتظاري.. عالم نحتَ سكوني على الأريكة في الفترة الوجيزة..

وحدها المتحولة إلى كتلة ماء صاف يتشكل مثلما يشاء. وحدها وقعت على سر صمتي وسكوني!. أحسست أنها كانت ترقص لي وحدي دون الكل.. وحضوري جعلها تتجلى..

ـ لكن أليس ذلك كان وهماً أخر من أوهام عمري؟!

ضحكتُ بصخب على المسطبة الخشبية من سذاجة أكررها كلما صحوت من السكر، سذاجة إطلاق صفة الوهم على أفكاري. ضحكت وتابعت طير نورس ينقض على سمكة في عرض القناة..

ـ أليس العمر والأيام ليس غيرِ وهم يجري وتجري إلى المجهول؟!.

ـ أليس الحياة فقاعة سرعان ما تنفجر كما كتب المصور الزنجي عاشق الصبيان "شاكر م "على لافتة علقها بواجهة محله؟!.

ـ أليس وضعي البشري الآن ليس غير وهم من وهم أكبر يأخذه البشر بجدية حتى أنهم يصابون بالنوبة القلبية وجلطة

الدماغ؟!.

مازلت أتخيلها تبحث عني وستعثر عليّ.. مازلت أتخيلها متعلقةً بيّ وكأنني أمير العشق لا سكير.. متشرد.. دون مأوى.. أسكن الزوايا والحدائق وأنفاق المترو المهجورة.. وخيم المشردين بعد سكرة مشتركة.. وفي الشتاء أنزل في الأمكنة الرثة التي خصصتها بلدية كوبنهاجن لأمثالي.. حيث أجد الدفء، ووجبة رخصة تقيني الموت جوعاً. مازلت أتصور نفسي ذاك المناضل الذي قاتل في كردستان طوال الثمانينات، المتألق الذي تحمل مشاق حرب العصابات وعشق أجمل البنات لكنه أضطر إلى الهرب إلى بيروت ليعيش تجربة أخرى مع المقاومة الفلسطينية والحرب الأهلية اللبنانية.. ثم تدرب بمعسكر في جنوب لبنان، ليتسلل عبر سوريا وتركيا إلى قواعد الثوار

.. مازلت أظن بنفسي الإنسان ذاك.. بكامل حيويته.. حتى أني أتخيل في تشردي تفاصيل صغيرة جداً عن مشاق الجبل وشدة مشاعري وعشقي لكل ما يحيط بي من شجر وبشر وسماء وماء وأصوات وأحلام ومشاق.. أتخيل التفاصيل، فيستقيم من رماد لحظتي كيان جميل كنته أو أتخيل أنني كنته!

ـ ألست في دوامة تشبه دوران الأفلاك لا فكاك منها؟!.

ـ ألست في خانة الأخيلة.. حيث الخواء يقود إلى الخواء.. ولذة الخواء تسعف الروح بصدقها النظيف من أي منفعة!. ألست في سديم؟!. وإلا ما هذا الشعور بالفزع كلما وصلتُ مرة إلى حافة الصحو والأسئلة؟!.حيث أسرع إلى البحث عن سيجارة حشيش.. أو نفسٍ من سيجارة، إلى جرعة خمر، قنينة بيرة

أضطر كي أحصل عليها إلى تجميع القناني الفارغة وبيعها لتوفير ثمن واحدة مليئة.

ـ ليس ثمة فاصل بين الأخيلة والواقع بين الأحلام وما يجري. البشر من خلق ذاك الفاصل.. فأنا مثلاً لا زلت أرى بوضوح وكلما صحوت للحظات جسدها الناحل.. الصغير الذي أستطيع حمله بيد واحدة يلعب وسط الساحة مظهراً بهجته وشدة تعلقه بالإيقاع ليحرق قلبي.. لا زلت أستطيع إذا ما أغمضت عيني وسحبت عدة أنفاس من سيجارة الحشيش وكأس بيرة لمس جسدها بأطراف أناملي.. أستطيع تحسس كتلتها لحما ينبض.. وهذا بالضبط ما أفعله مع أمي التي ماتت وأنا في المنفى.. فدأبت على السهر وشرب الخمر وسماع الموسيقى وإغماض عيني فأراها متجسدة أمامي بوضوح لنتحدث ونتعانق.. شاماً رائحتها التي هي خليط من المسك والبخور وحناء.. فما دمت أتخيل فأنا أعيش.. بتُ واثقاً أنها سوف تندم على تركها لي للشارع والخمر والحشيش.. ستندم وتبحث عني وتأخذني إلى كونها الذي أتصوره سينضب دوني!.

يدوخ في دوامة حوار يتشعب.. ليفضي في المطاف الأخير إلى المشهد نفسه.. العاصفة التي هبت من رجفة جسدها.. وضيعته! مبقية تفاصيل ذلك اليوم نفسها من لحظة دخوله تلك الشقة الواقعة في طابق ثاني، المليئة بالزهور وأحواض الأسماك والعطور.. وتمليه المسحور رجفة جسدها المنتفض بجنون.. المنسجم وكأنه أصابع عازفي ـ أنت عمري ـ .. ونأيه معها في عالم يخصه فيه بساتين وظلال.. حقول وعصافير وسواقٍ ضحلة.. كان يبتل برذاذ جسدها الخفي، بعيداً عن تصفق أخيها

وأختها وأمها.. بعيداً في عمق الصالة حيث السمك الملون يسبح بالأحواض وكأنه يبارك جسدها المتدفق. بعيداً مع غصون شجيرات أركان الصالة التي تدلهت بها أمها فملئت بها المكان. كان في جموده يحرز إلى الأبد أمكنة كيانها حيث تعيش.. ويحلم في الغور فيها مثل شبح الأخيلة في الحكايات.. شبح غير منظور يخرج لها سراً في عمق الليالي ويعرفها بنفسه، يبث أشجانه، يمسحها بحنان، ويغيب!.

صرخ متوهجاً:

ـ ستأتي حبيبتي العاهرة.. اجمل عاهرة.. ستأتي في لحظة ما وتجدد مجد تلك اللحظة العاصفة في شقة بالطابق الثاني قبل أكثر من عشر سنوات!.. ستفشل مع كل عشاقها.. ستفشل أنا واثق من ذلك.. فليس غير عالمي يستطيع احتواء كيانها العاصف.. ليس غيري!.

في اللحظة تلك نهض نشطاً من المسطبة، وتلفت باحثاً عن كيس من النايلون فوجده جوار قائم المسطبة الأيمن. لم يجد فيه سوى قنانٍ فارغة.. حملها وخطا نحو السلم الحجري المؤدي إلى وسط "كرستيانه"* حالماً برشفة من البيرة ونفس من الحشيش.. سيتوفر حتماً من طيب الحشاشة والسكيرين النجباء. تسلق السلم بدرجاته العشرين فتجسد تحت وقفته ذاك الزحام اللذيذ حيث الكل مشغول بأخيلته مسترخياً يبث طيباً. أنحدر على السلم الهابط نحو البارات والأسواق. سرق سيجارة حشيش من كشك مزدحم بالزبائن، ولما أصبح في الشارع المكتظ المعتم

** كرستيانه منطقة وسط كوبنهاجن شبة حرة تباع فيها الحشيش

والسيجارة ترقد بين أصابعه في جيب سترته القديمة قفز فرحا، وأشعلها، على منضدة خشبية خارج بار وجد قنينة بيرة مليئة حتى النصف، تلفت لم يجد أحدا، أرتشف منها قليلا، وسار نحو سقيفة قريبة ليلوذ على مصطبة خشبية باردة.. يعب أنفاسا عميقة ويحتسي البيرة، مع أخر نفس وقطرة وجد نفسه يحلق من جديد نحو آفاق لا يدركها سواه..

الدنمارك 1999

13- حفيد علي بن أبي طالب

يا أبا الحكمة..

يا مصباح حلكتي

هذا غيضٌ من فيض كوابيس نومي اليومية..

ما هذه الحياة..

فزعٌ في فزعٍ، حزنٌ في حزنٍ، رعبٌ في رعبٍ. و.. و.. وهمتُ في بريةِ الله الواسعةِ، الممتدةِ أمامي، مذعوراً، غريباً،

شريداً.

الأب – المعلم – الشرطي، سلسلة جعلتني أوغلُ في هولي وأسراري. فارتكبت الكبائر في أحلامي أيضاً حينما يحاصرني الليل برغائبه، وبإرث الكبت والحرمان أجد نفسي أضاجع النسوة المحرمات كلهنَّ، لأتحمل في الصباح تقريع الذات المرير.

وتفرزني الأحلام إلى الصباحات مرتبكاً متلبداً، شاعراً بالخزي، فأكون منبوذاً، شريداً، فزعاً، غير واثقٍ من شيء.

أية عذابات عانيتها يا شيخي الجليل إذن، في صحوي الذي أخبرتك عن بعضه، وفي أحلامي.

فلمَ ألقيتني في فجوة هذه الرؤيا المدَمِرة؟!.

وتقول ليَّ أصبرْ!.

عانيت يا شيخ الغافرين مثل ما عانيت.

لم أتلوث بشؤون الحكم مثل ما تلوثت.

لم أرتكب ذنب قتل النفس مثلما ارتكبت.

فمن أجل عدالةٍ موهومةٍ تسكن الرأس منذُ فجر الحضارات خضت غمار معارك أفنيتَ فيها الكثير من نفوس أعدائك وأصحابك.

بكفك الجبار وسيفك ذي الفقار قتلت أعزّ أصحابك في معركة الجمل وبكيت علية

أحرقتَ من عبدك بالنار، وحاربت من كان صاحبكَ بالأمسِ.

بالغتَ في عدالتكَ، وغفرتَ كل الذنوب، حتى الشذوذ، حينما أتاك عمر مرعوبا صارخاً؛ لقد هلكت، لقد أدبرتْ. فهدأت باله.

قسّمتَ بيت المال بالحق، وتواضعتَ شديد التواضع في ملبسك ومأكلك.

ماذا حصدتَ من كل هذا ؟.. ماذا؟!.

الكلُّ لفظك.. الكل هجركَ.. الكلُ حاربك، حتى اضطررت إلى الإيغال بوهم الحق وقدرتك فصرخت بخطبتك في جامع الكوفة:

(أنا آيةُ الجَّبار. أنا الأول. أنا الآخر. أنا الظاهر. أنا الباطن. أنا وجه الله. أنا يد الله. أنا جنب الله. أنا من سُمَّي في الإنجيل إيليا. أنا وارث علم المختار)*.

أسرفت في الوهم وأسرفت، حتى قُتلتَ اغتيالاً بيد أعزّ أعزائك؛ ربيبك في ذلك الغبش الحزين وأنت تصلي الفجر في جامع الكوفة.

أما عن طقسك السري، فلم تكشف عنه بكلمة واحدة.

ألا توجد لديك أسرار؟!.

يجوز ذلك.. كنتَ مشغولاً بشؤون الحكم والعدل وتبرير القتل.

أنت الحاكم المطلق

وأنا عبدك الضائع

** عن الإسلام في إيران ص144 هنري كوربا – دار النهار بيروت

أنت الأول والآخر

وأنا الذرة المهجورة!.

أنت وجه الله ويده وجنبه

وأنا حفنة تراب منسية!.

أنتَ آيةُ الجبار

وأنا ذات الجندي الذي قاتل في جيشك وجيش أعدائك

نسياً منسيا

ذات العذاب

ذات المحنة.

عذابٌ مستعرٌ لا يبرد.

لم أقتل أعزّ أصحابي.

لم أحرق أحداً بالنار.

لم ألسع كف أخي الضرير السائل.

كنتُ جندياً في جيش السلطة ومعارضيها، لا حول لي ولا قوة.. ولا يقين.. وهذا عذابي!.

حاولت أن أموت قتيلا لأتحول إلى معنى ولم أستطع!.

يا شيخ الراحمين

أغفر لي ما قلته لك عنك، فقد أهلكتني الرؤيا وجعلتني أهذي بما لا أدريه!.

أنت المتحول لاحقاً إلى قدس الأقداس

وأنا واحدٌ من ذريتك المهجورة في خضم عذابات البشر المطحونين بالخراب والتوله المستحيل بالعدالة!.

جاهرتك..

جاهرتكَ.. فأفصح لي عن نفسي الشديدة التناقض، الفاقدة يقينها!.

المعنى.. المعنى.. المعنى يا شيخي الجليل المعنى.. المعنى فروحي خلصتْ.. ونفسي نفدتْ،

وأنتظاراتي إنهدمت!.

موسكو 8-12-1991

14- صديقي

غمرتنا المحبةُ حتى نسينا الدنيا. لم يكن ذلك اللقاء الخاطف في منجر شركة المبازل اليونانية 1972، سوى عتبة المحبة. تواعدنا في المساءِ تحت فندق الثورة الذي ينزل فيه، فالمدينة مبهمة بالنسبة له.

أخبرني أنه من كربلاء، يعمل سائق حفارة، له أيام في الديوانية فهو غريب، هكذا كان العراقي يقول عندما يغادر مدينته في تلك الأيام.

في مقهى قريب جلسنا متقابلين. أسعفنا المغني "حسين نعمة" بأغنية "يا بنادم" فصاحبي صامت مثل جدار. بعد ساعة بتُ واثقاً بأنه لا يجيد الكلام، لكن قسماته وعمق عينيه تقولان كل شيء، فأمسيتُ أرى أعماقه صافيةً في كل حالاتها، في السكرِ، والصحوِ، في الاختلافِ والاتفاقِ، في الغضبِ والمرحِ طوال أكثر من ثلاثين عاماً من عمر علاقتنا، في الزنزانة حينما خطفونا من بارٍ، في البيتِ وقتما ضمني من عيونِ رجالِ الأمنِ طوال سنتين، وفي الوداع حينما التحقت بالثوار في الجبل.

عدتُ بعد الاحتلال الأمريكي، وجدته قد شاخ وأدمن. أمعن في السكر وأكبر بناته خطفتها الميلشيات قبل أكثر من سنتين.

فشلت كل جهودنا في العثور عليها، أو إقناعه بالتوقف عن الشربِ.

ها أنا أجلسُ جوار سريره، وهو يغفو بعمقٍ، مديراً وجهه للدنيا.

جواري تبكي زوجته وبناته.

أنزفُ روحي بصمتٍ.

8/شباط/2014

15- شوق مستحيل

وحيداً في صباح البيت.
مضّني الشوق.
شوبان يصدح بإحدى سونيتاته.
حزينٌ مخنوقٌ.
مضّني الشوق .. الصيفُ على الأبواب
العاشرة صباحاً. وحيداً في البيت. الأولاد في المدرسة.

زوجتي في العمل.

أعطبوا جسدي في حروبهم.

وحيداً في المنفى مرمياً بين جدران أربعة.

أتيه كل صباح في الحقول الخضراء. أحدق في السماء، في الشجر، في الحجر، في الطيور، في الصمت.

أصرخ أحيانا، وأضحك في أخرى.

أبتهج في لحظة لخلاصي من وطنٍ دامٍ وحروب، وأكمد في لحظة لشدة وحشتي.

أعود من جولتي ككل يوم للقراءة والقراءة والكتابة.

العاشرة صباحاً، ليس لي رغبة في تجوال الصباح.

ليس لي رغبة في القراءة

ليس لي رغبة في الكتابة

ليس لي رغبة في شيء

وحيدا في البيت أحدق بالورود المنثورة حولي في الأواني، وفي الحديقة الصغيرة خلف النافذة.

أحملق في صورنا المعلقة على الجدران، في الفراغ، في بحر أشواقي.

شوبان يعمق شجني.

وانفجرُ باكياً، ناحباً، نادباً، مرددا:

- يمه يا يمه.. يمه يا يمه!.

ووجها الحزين يلوح حاراً أكاد أسمع أنفاسه في غلالة الدمع.
كانت قد ماتت قبل عام وأنا في المنفى.

28/5/1996

16- الرفيق

عدنا مُتعبين. كان يسير جواري بعناء ونحن نصعد الجبل نحو مقراتنا. أحببته بشدة حال التحاقي بالثوار، وأفضى لي بأسرار كنت أجمد مذهولا، متيبساً من هولها. مع ذلك أحببته وبشدة ولا أدري لِمَ، هكذا أصبح قريباً إلى نفسي، وأمسينا نثق ببعض دون سؤال.

من غبشة الصباح كلفونا بالنزولٍ إلى المقر القديم في أسفل الوادي جوار النهر، لمعرفة ما جرى للرفاق، فقد وصل مع أول

خيط للفجر رفيقان فقط من المجموعة يبكيان ويلطمان ويرددان:

- راح الرفاق!.

البارحة وبعد منتصف الليل بقليل رأينا وهج القصف الصاروخي على الوادي، قلت مع نفسي:

- عليهم يا إلهي عليهم!.

كان يسير جواري مرتبكاً، يريد أن يقول شيئاً لكنه يتردد ويثقل خطوه، قلت له أكثر من مرة:

- ماذا بك؟!.

يحدق في وجهي بعينين ترمشان بسرعة وكأنه غير قادر على مواجهتي ويقول:

- لا.. لا.. ماكو شيء!.

عبر قبلي إلى الجهة الأخرى حيث المقر، إذ انشغلت بالرفيق الذي انتحر على ضفتنا. لحقت به بينما بقى رفيقان مع رفاق ثلاثة يهذون ويشتمون متأثرين بقصفٍ بغاز الأعصاب. لحقت به متخذا ضفة النهر، وفيما كنت انحرف نحو الممر الصاعد وجدته ينزل مسرعاً، قال لي:

- أبو الطيب لا تزال رائحة غريبة في المكان و "أبو جواد" أستشهد.

حاول أن يثنيني عن الصعود لكني صعدتُ.

جمدت أمام جلال الموت الممد تحت قامتي. رفيق بالأمس كنا نضحك معاً يغور في رقدته الأبدية مرعوباً ومنديل مبلل يحيط

بأنفه وفمه. انحنيت عليه لأسمع نبضه، عل وعسى، لكن هيهات كان مندملا في أبديته.

دفناهم الثلاثة على عجل وعدنا بالناجين.

كان يسير جواري مخنوقا، يلوب ويتعذب من أعماقه. كان يحبني بشدة. والحب أعمى. وقبل أن ننحرف في وادٍ جانبي طلب مني التمهل قليلا عن بقية الرفاق، فتلكأت. قرب وجهه من وجهي وقال بصوت خافت رغم انفرادنا:

- أبو الطيب، لقيت سبعين دينار بجيب "أبو جواد" وتقرير طبي من دكتورة "مريم" عن مرضه وعدم صلاحيته للبقاء مع الثوار!.

- ما المشكلة؟

سألته بكل براءة، فرمقني بقوة وقال:

- أريد رأيك أسلم الفلوس للحزب لو أخذهن!.

هنا صرت خبيثاً بالمعنى العميق لا السطحي. إذ لم أكن الصديق النصوح. كنت أستطيع أن أردعه، لكن أردت أن أكتشف أعماق رفيق أحببته بلا سؤال، فأجبته بحياد رغم تراجيدية الأحداث:

- ما أدري.. أنت تقرر رفيق!.

وجعلت أراقبه بعينين فضوليتين، كان يتعذب بشدة حتى أنه حاور نفسه وأسمعني الحوار:

- أي ألمن أسلم الفلوس لفلان، لو لفلان، وهو وين الحزب،

شو راح نتشرد، لو أسلمها لواحد راح يأخذها مو؟

كنت ألتزم الصمت وأنتظر قراره بحرقة. وأخيرا مزق التقرير الطبي وأخفى النقود.

من تلك اللحظة ابتعدت عنه مسافة، وقليلا.. قليلا أَذْبَلتُ العلاقة.

الغريب أنني لازلت أحبه.

30-7-2016 الدنمارك

17- عناق حصان

في المنفى تقشرك العزلة وتجعلك أشد رهافةَ من جلد فراشة أو تسحقك وتجعلك عنيفاً شبه مجنون تصرخ في وحدتك وتكسر ما حولك من أواني وأشياء وأحيانا يبلغ شدة العنف المتفجر في النفس فرط العزلة إلى ضرب الجدار أو نطحه إلى أن يصل المرء إلى حافة النحيب، بعدها يهدئ وينام.

أنا من الصنف الأول. أهيم في حقول الله الدنمركية المحيطة بسكني. أمشي أحياناً منذ بكرة الصباح حتى الظهيرة، أو من

الظهيرة حتى المساء لا أفكر في شيء. أحاول تنظيف نفسي من التجارب كلها كي أتوحد في الطبيعة الخلابة، وأدرك لغة الأزهار. أمسح كل زهرة حقلٍ بحنان ومحبة، أتأمل شكلها ألوانها غصنها الغض الذي يرفعها عن الأرض كي ترى الشمس وتسبح في نورها الضنين هنا.

هل كنت في الطفولة أفعل ذلك؟

نعم كنت أضيع في الحقول المحيطة بحي العصري في الديوانية أشم الأعشاب وأسبح بالسواقي وحيدا وأنا لم أبلغ العاشرة بعد. وهنا في منفاي الدنمركي وجدت نفسي ذلك الطفل الضائع في حقول الله المتشابهة في بقاع الأرض. صّورتُ ذلك الضياع في الطفولة في قصصي ورواياتي. لكنني وأنا في خريف العمر. ولا أدري كيف مضى العمر رغم عنائه، وجدتني أهيم لا صديق حميم قربي هنا في الدنمرك، لا مقاهي، لا ناسي، لا أهلي، فقط رفيقة العمر التي حضت ما حضتُ من العناء والأمراض والوحشة.

أهيم في الحقول معانقاً أشياء الله العشب الشجر العصافير الضوء السماء التراب الماء المارة بصمت بما يشبه الحلم. مفكراً بالأصدقاء القريبين إلى الروح، البعاد، والذين غادروا إلى السماء باكراً وتركوني في بارح الأشواق. أشفُ.. أشفُ وأنشد قصيدة "بودلير" المحفورة في روحي وذاكرتي. أنشد بصوت عالٍ وسط الحقول متوعدا السماء والوجود والكون بصوتي المرتدي روح القصيدة أصرخ بالكلمات وأحس أن الشجر والأشياء والتراب والماء والسماء تتناغم مع إحساسي والكلمات

فنندمج في اللحظة في تجلي صوفي يلقني على حافة العدم وبهجة ليس بعدها بهجة.

(فوق الغدران، فوق الأدوية
والجبال، والغابات، والغيوم، والبحار
وفيما وراء الشمس، فيما وراء السماوات
فيما وراء تخوم الأفلاك المرصعة بالنجوم
تتحركين يا روحي برشاقة
ومثل سباح ماهر ينطلق في الماء
تمخرين، بابتهاج، المدى الشاسع العميق
بلذة رجولية، لا توصف
حلقي مبتعدة عن هذه العفونات المّرّضية
اذهبي وتطهري في الأعالي
واشربي، مثل شابٍ صافٍ وإلهي
النار النقية التي تملأ الأمداء الصافية
ووراء المتاعب، والهموم الشاسعة
التي ترهق بثقلها الوجود الغائم
سعيد هو ذلك الذي يستطيع بجناح قوي
أن ينطلق نحو الحقول المضيئة والصافية؛
ذلك الذي تنطلق أفكاره، مثل الطيور

نحو سماوات الصباح في انطلاقة حرة

الذي يحلق فوق الحياة، ويفهم بلا جهد

لغة الأزهار والأشياء الصامتة.)

أعيد أنشادها في بهجة الطبيعة الدنمركية الخلابة وحقولها الخضراء منتشياً

حتى أنني عدتُ أستطيع الكلام مع الأزهار والحجر والتراب وشعاع الشمس والعشب في نشوة ليس ما بعدها نشوة.

هل ما أكتبه أضغاث أحلام منفي قَشَرَهُ الوجد وجعله ناعماً لا يستطيع سوى العيش بأحلام يقظةٍ وخيالات تنبعث من ماضٍ بعيد قريب من صرة الأرض، أم أن هذا الوجد الذي جعلني صريحا أصور ما أرى بعمق وكما أراه حتى أن الجميع بات يغضب مني لا بل يهاجمني ببذيء الكلام؟!.

البارحة عَنّ لي تقليب ألبومات صوري الفوتوغرافية المكدسة في خزانة لا وقت لدي لمراجعتها، فعثرت على صورة تجسد ما ذهبت إليه من هيام ومعانقة لغة الأزهار والطيور والحيوانات. صورة في حقلٍ. أخذت معي صديقٍ للتجوال في مناخي الخاص السري. أتذكر تفاصيل المشهد. كان الجو غائماً والحقول تحفها الغابات، وحينما مررنا بحقل خيول محاط بسياج سحرني مشهدها فوقفت، قال صاحبي وكان يحمل كاميرا:

- ماذا بك يا صديقي؟

قلت له على الفور وعيناي تتابع حصان توجه نحوي حال رؤيتي:

- شوفه أجه يريدني!.

علق ضاحكاً:

- ادري سلام أعرفك مجنون من كنا طلاب متوسطة.

ما علاقتك بحصان حقل، لو كنت مربيه معقولة!.

وظل يسخر ويسخر فهو يعيش قبلي في الدنمرك بأكثر من عشرة أعوام. تصلبت جوار أسلاك السياج الواطئ حتى أقترب مني مع صاحب له. مددت ذراعي واحتويت بكفيّ وجهه وقبلته في جبينه قبلة محبٍ لا يعرفها إنسان قط. وحده حصان الحقل أحس بما في تلك القبلة من وجد ومعنى. صورني صديقي الذي ظل يضحك طوال سهراتنا في الأيام التالية، ويحكي للآخرين كيف جاء حصان في حقل كي أقبلة، ويضيف بأنه رأى دموع الحصان.

كان يموت من الضحك ويكرر:

- ولكم سلام بكى ويه الحصان.

2015

18- حصار وتبعثر

إلى الرفيقة ذكرى

حاصرتها العيون الجائعة، والأجساد العاطة برائحة الفحولة، التي ترتعش لخاطر الأنثى، الأرواح المسكينة الهاجسه بموتٍ دانٍ يحوم والتي هرأتها الأخيلـة والأحـلام والعـادة السـرية. عصفت بها العيون. وانهالت عليها دعوات الحـب والـزواج والمضاجعة ولم يمض شهر على دفن زوجها بمقبرة الموقع.

كانت تأتي برسائل تجدها مدسوسة في فراشها، ملقاة في طريقها، أو يسلمها الشخص المعني بنفسه، رسائل غرام فاضحة وأخرى رزينة تأتي بها إلينا باكية، غير قادرة على تحمل ضغط الحصار الفظيع وفداحة فاجعتها الطرية. وكنا نقويها بحكيم الكلام حتى تقاوم جمره، والدسائس والقيل والقال المزدهر كلما تشددت في تمنّعها. قاومت رغباتها المستثارة. قاومت إلى حين. ثم انفجرت عنيفة بعد أن سعّرتها سيول الفحولة الجارفة، وخلاصاً من الانجراف في مهاوي ومتاهات الرغبة التي كانت تسر باشتعالها لزوجتي فقط، نصحتها بعد أن شاورتني بالاقتران بمقاتل، ما لبث هو الأخر أن قتل بعد أسابيع بقصفٍ جوي هاداً أخر حصونها، فظلت تدور بين زوج غيور وعشيق، مستعبدة لنزواتها العارية الصريحة حيث لا رواء. فأبعدوها إلى الحدود لتضيع بالمنفى.

1999 - الدنمارك

19- ضحك

أضحك من قلبٍ مجروح
أضحك حتى أكاد أختنق
في عربة مترو
يطغي ضحكي على ضجيجها
في باطن موسكو
قبل أكثر من ستة وعشرين عاما

ورجل روسي

أنيق جدا

يحمل حقيبة ويلبس قاطا

حملق بي طويلا

وسأل صاحبي الذي يعرف الروسية

شيئاً

فأخبرني صاحبي:

أنه يود الجلوس معي لأنني الوحيد في هذا العالم الكئيب أضحك ببهجة

أخذني الضحك حتى كدت أن أموت

أضحك

وأضحك

كنتُ لتوي خارجا من حرب ثورية خاسرة

لا فلس ولا عانه

زوجتي وابنتي سافرتا إلى الدنمارك

وأبني الكبير تركناه في العراق وعمره ثلاث سنين ولا اعلم عنه شيئا

وأنا ضائع وسط موسكو

والشيوعية تتهاوى

أسكر منذ بكرة الصباح
وأضحك
أضحك
أضحك
أضحك
كي لا أطق وأموت!.
وهذا الروسي الأنيق
ينظر نحوي نظرة حاسدٍ
حتى أسقطني منهكا من الضحك
فتربعت وسط الممر
غارقاً
مختنقا
يا إلهي
أشكرك لهبة الضحك.

2016

منشورات «الأيام»

20- أمي

(أمي طَشْتْ غَيبِتي بمْاي العَصِرْ
والطَيره المَعرْسَه إسْتَحَتْ)
علي الشباني.

كانت تهرع حال حمل حقيبتي ذاهبا إلى بغداد نهاية الأسبوع حيث كنت ادرس وبيدها طاسة الماء، تتمتم بكلامٍ مع نفسها وترش الماء خلفي ناظرةً إلى السماءِ ومتضرعةً بذراعيها المفرودتين كي يحفظني من أقدار الطريق.

لم تكف، أيام الحرب العراقية الإيرانية وهذه المرة تودعني بالماء وفي عينيها هلع. لكنني نجوت

وفي أخر مرة أغادر إلى الثوار لم أسر لها بالأمر، عانقتها وشممتُ رائحتها المسكرة عميقاً. كنتُ أودعها مع نفسي. أبعدتني ونظرتْ في عيني طويلاً وقالت:

- ها يمه رايح؟!

- ..

- أعرف قلبي يقول لي ذلك. أنتَ رايح يمكن بعد ما أشوفك!.

وضمتني بقوة وكأنها تريد أن أسكن أحشائها وأجهشت.

وصدقت، لم أرها أبدا.

ماتت وأنا في المنفى.

2016

21- قتلة وشكوك

انحدرتُ في سِنَةٍ، فوجدتني أزحف خلال شقٍ بخاصرة الجبل، مموه بصخرة تلاصق السفح في وادٍ أجرد مهجور. عدتُ بأرغفة خبز وزمزميه ماء وحبات طماطم تسولتها من رعاة مخيَّمينَ على قمة الجبل. غمرتني عتمة المغارة العميقة، تريثتُ جوار الثلم المنخفض أغرزُ عيني في الجوف المظلم البارد، وصدى احتكاك جسدي بالصخر يضيع في صمتٍ وجدتهُ غريباً. ناديت بصوتٍ منخفضٍ وَجِلٍ قبل أن تتلامح كتلة في

منتصف الفسحة الطولية المشكلة مدخل متاهة المغاور الضائعة في أحشاء السلسلة الجبلية. أنعمتُ التحديق فاستبان هيكل مقاتل واحد فقط من المجموعة التي كانت تحقق مع فلاحين كرديين شَكتْ المفرزة بأمرهما في اغتيال رفيق قبل أيام أثناء قضائه أجازه في قريته المتناثرة بيوتها على رابية تحت سلسلة "كارا" ـ. رأيته يلوذ بجدار المغارة الرطب ويحملق بذعرٍ مزدرياً ريقه الجاف، وغير قادرٍ على الإجابة على أسئلتي:

ـ أين بقية الرفاق؟.. ما بكِ؟.. ما الذي حدثَ؟.

تركته متجهاً إلى حيث يشخص نحو مصدر أنين مصحوب بشخير. فوجدت الفلاحين مقيدين في أقصى المستطيل المفضي إلى تجويف ممرٍ غائر في بطن الجبل. كانا ممددين على ظهريهما، داميي الوجه، محتقني القسمات، يقلبان أعينهم في دورة تنقطعُ باختفاء البؤبؤين، وتتواصل بعودتهما. هرولت نحوه. أمسكته من تلابيبه ورحتُ أهزّهُ صارخاً:

ـ ماذا فعلتم؟..ليش.. ليش.. ليش؟!.

أنفلتَ من بين أصابعي التي وهنت. قفز نحو الشق وأنسل منهُ. هرعتُ نحوهما ثانيةً. حللتُ وثاقيهما. رحتُ أتنقل مضطرباً بينهما. أسقيهما ماءً. أمسح بمنديلٍ مبلول قسماتهما المشوهة بالكدمات والجروح. كانا يحتضران، فألقى بيّ جسداهما المنتفضان في باطن ظهيرة باحة بيت الجيران المكتظة بالنسوة المتحلقات حول أمي الجالسة عند رأس المحتضرة تسقيها أخر قطرات العمر. بللتُ منديلي بالماء وجعلتُ أقطره قطرة.. قطرة داخل تجويف الفمين المختلجين

إلى أن أنتفض الأول وكأنه يبغي الانتصاب بجذعه العلوي رافعاً ذراعيه صوب الضوء المتسرب من فتحة المغارة ثم هوى ساكن الأنفاس بين ذراعي. لحقهُ الثاني بعد دقائق، تجننتُ أزحت القميص الملوث بالعرق والدم عند موضع القلبين وألصقتُ أذني، ليس غير نبضي الضاج. اعتدلتُ ساحباً أنفاساً عميقة، ثم ركعت ثانية لصق القلبين. أيقنتُ من اندمالهما بالمطلق الساكن، فانفجرتُ بصراخ أجرد هزَّ أركان المغارة. صراخٌ مبهمٌ متصل رجّ بي الظلام والصخور. عويتُ عواءً أملس بوجه الضوء المتسرب من الشق الضيق الذي أنسدَ بأجساد المقاتلين المتدفقة صوبي. دار بي السقف والضوء والجثتان والقادمون الذين أحاطوني وأمسكوا بيديّ وساقيّ وخصري إلى أن وهنت قواي وكففتُ عن الرفس، منحدراً نحو فضاء فارغ، رماني إلى عدمٍ أظلم. لا أدري كم أستمر. إذ انتشلتني من خوائه ضجة حفرٍ، فتحتُ عيني لأحرز ظلال الجسدين المسكينين الساكنين وهم يحملوهما بمستوى الركبة، لِيُلقى بهما في باطن حفرة ضحلة، ثم تنهال الأيدي المرتبكة بالصخور والتراب. ومن يومها أنسدل ستارٌ بيني وبين رفاقي، فأحجموا دون تصريح عن تكليفي بمفارز قتالية أو مهام خطف مشبوهين من مراكز المدن الكبيرة ليلاً. أمسوا يرمقونني وفي عيونهم سخريةٌ، وعلى شفاههم لغطٌ. وجوه هازئة تحاصرني منذُ بكرة الصباح وحتى لحظة الإياب إلى الفراش مع تكليفٍ بأشق الأعمال الجسدية كحمل الصخور من عمق الوادي لبناء غرف القواعد الجديدة، تكسير الحطب، تحميل أكياس الرز والسكر من القرى التركية الحدودية البعيدة، العناية بالبغال

ومستلزماتها من علفٍ ومواد تخص التحميل. ذقتُ عذاباً دفيناً متصلاً هزَّ ثقتي بنفسي من الأعماق، وجعلني مضطرباً لا أقوى على مواجهة نظرات المقاتلين الأشداء الحازمة الواثقة من عدالة قضيتها التي تبرر كل ذلك الكم من القسوة. كنتُ أشرد بعيني من الوجوه عند الكلام إلى غابة السفح والسماء، صخور الأرض وجدران الغرف، النهر والقمم العالية، الجوانب والخلف. وهكذا ألتحم عذاب يوم الجبل بعذاب تفاصيل الطفولة والصبا والمراهقة.

2016

صدر للكاتب

1. **رؤيا اليقين** (قصص)، الطبعة الأولى 1994دار الكنوز الأدبية بيروت ـ لبنان.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
2. **رؤيا الغائب** (رواية)، الطبعة الأولى 1996، دار المدى دمشق ـ سوريا. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
3. **سرير الرمل** (قصص)، الطبعة الأولى 2000، دار حوران دمشق ـ سوريا.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
4. **الإرسي** (رواية)، الطبعة الأولى 2008، دار الدار القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد ـ العراق. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025).
5. **الحياة لحظة** (رواية)، الطبعة الأولى 2010، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ـ مصر ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
6. **في باطن الجحيم** (رواية)، الطبعة الأولى 2013، وزارة الثقافة، بغداد ـ العراق، الترجمة الإنكليزية 2014 دار صافي، الولايات المتحدة الأمريكية. الطبعة الثالثة 2025 ـ دار الرواد المزدهرة بغداد ـ العراق. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
7. **حياة ثقيلة** (رواية)، الطبعة الأولى 2015دار الأدهم القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد، العراق ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
8. **إعدام رسام** (رواية)، 2016دار الأدهم. القاهرة ـ مصر. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
9. **طفلان ضائعان** (قصص)، الطبعة الأولى 2019 دار الدراويش بلغاريا، الطبعة الثانية 2023، دار الدراويش بلغاريا.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
10. **كل شيء ضدي** (رواية بجزئين)، 2021دار الدراويش بلغاريا. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)

11. **قبلة الصباح** (قصص)، 2022، دار الدراويش بلغاريا.
12. **دونت سبيك أسطب** (رواية) 2023، مؤسسة أبجد العراق. ـ النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)

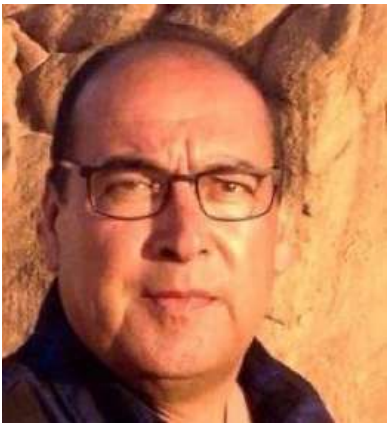

سلام إبراهيم

سلام إبراهيم، روائي عراقي، ولد في 8 كانون الثاني / ديسمبر 1954، في مدينة الديوانية ـ العراق. يقيم حاليا في كوبنهاغن ـ الدانمارك منذ العام 1992، متزوج ولديه ولدان وبنت.

بدأ سلام إبراهيم مساره الحيوي مبكراً في نشاطات سياسية وأدبية، عايش خلالها تحولات العراق الحديث القاسية. تعرض للاعتقال والتعذيب النفسي والجسدي أكثر من أربع مرات بين عامَي 1970 و1980، بسبب مواقفه المعارضة لنظام الحكم آنذاك.

في سياق الحرب العراقية - الإيرانية، تم تجنيده كجندي احتياط إلى جبهات القتال الجنوبية، لكنه اختار الانشقاق والانضمام إلى صفوف أنصار الحزب الشيوعي العراقي في آب / أغسطس 1982. بعد تسلله إلى المدن وعيش حياة مختبئة بين شباط 1983وتشرين

الأول 1983، عاد قسراً إلى وحدته العسكرية، ليُرسل إلى جبهات القتال في البصرة حتى شباط 1985.

واصل مواجهته مع النظام بانضمامه مجدداً إلى الثوار في كردستان، مصطحباً زوجته معه، لكنه اضطر إلى ترك ابنه البكر وراءه. تعرض لجريمة إنسانية جديدة خلال القصف الكيميائي الذي استهدف مقرات المقاومة في "زِيوة" قرب العمادية في 5يونيو 1987، ما أدّى إلى إعاقة رئتيه بنسبة 60%.

في حملة "الأنفال"عام 1988، نزح مع آلاف الكرد إلى تركيا ثم إيران، حيث عاش في مخيمات اللجوء حتى عام 1992، حين استقر أخيراً في الدنمارك، حيث يقيم حتى اليوم.

المسار الأدبي:

بدأ سلام إبراهيم كتابة القصة القصيرة أوائل سبعينيات القرن الماضي، ونُشرت أولى قصصه في صحيفة "التآخي"العراقية (كانون الأول 1975). طوال مسيرته، كتب أكثر من خمسين قصة قصيرة، وتوزّع إنتاجه الأدبي بين القصة القصيرة والرواية والنقد، مع مساهمات في صحف ومجلات عربية دولية مثل "الثقافة الجديدة"، "القدس العربي"، "الحياة"، "السفير"، "الاغتراب الأدبي"، وصحف المعارضة العراقية.